اقرأ

وداد السكاكيني

العاشقة المتصوفة

دار المعارف بمصر

وداد السكاكيني

العاشقة المتصوفة

اقرأ ١٥١
دار المعارف بمصر

العاشقة المتصوّفة

اقرأ ١٥١ – يوليه سنة ١٩٥٥

العاشقة المتصوفة

نجم رابعة :

أروع الأساطير ماشابه الحقائق ، فمن أساطير النجوم التى لمعت فى السماء وارتعشت أشعتها فى مدى الغيوب كأنها أعين الأبد، شاخصة مؤرقة ، نجم طلع فى سماء البصرة العراقية آخر القرن الأول للهجرة ، تسلل نوره إلى المجالس والبيوت ، وسطع فيها كالثريات ، وبقى مرموق الضياء حتى هوى فى أعقاب العصر الثانى للهجرة ، متحولاً إلى أحدوثة لا تنسى ، خلدتها السطور ، ولهجت بها الألسنة ، وتداولتها بالذكر والتأليف طائفة من الباحثين فى القديم والحديث.

لو سألوا رابعة العدوية من أنت وكيف جئت وعشت ؟ لقالت : نجمت فى السماء ثم كنت فكرة فى الأرض، مضيت مثل غيرى ، أحببت وكرهت ، وضحكت وبكيت وأخطأت وأصبت ، حتى تحررت من استعباد الإنسان ، وسموت بروحى وتفانيت ، فرآنى الناس عجيبة غريبة فى هذه الدنيا . . .

كذلك ولدت رابعة ، وعاشت زاهدة متصوفة ، وعاشقة

لا كعشق النساء، فى ليلة حالكة واجمة ، فاجأ المخاض أمها المسكينة ، ولم يكن عندها سوى زوجها إسماعيل يؤانسها ويعللها بالفرج ، وهو حائر فيما يصنع ، فإن جيبه خال من أي درهم ، والمخاض يشتد ويدنو ، والحياء والإباء يصدّانه عن التماس الإسعاف من الجيران ، فلما توسلت إليه أن يأتيها بما يعينها على الخلاص ويؤمّنها عسر المخاض، توجع لها ورثى لحاجتها ، ولم يجد مناصاً من الذهاب إلى جار له ، يريد منه زيتاً للسراج الذى خبا ، وسمناً تدهن به زوجته موضع السر للوليد ، فراح يطرق الباب دون جواب ، ثم ارتدّ خزيان حائراً ، وما كادت تحسّ زوجته أنه فارغ اليدين حتى بكت ، وكان الفرج قد أقبل عليها بالسلامة والأمان، وأخذ صوت المولود يشق سكون البيت فى ذلك الليل الطويل .

ولما سمع إسماعيل هذا الصوت الذى مسّ قلبه وشعوره أشفق أن يكون من بنت وله ثلاث قبلها ، وإذا به يتلقى الرابعة فسميت بعددها ، وما كان له ولا لزوجته يد فى جنسها ، فالله يهب لمن يشاء الإناث ، ويهب لمن يشاء الذكور ، وكان الشعور الموروث فى الرجال من عهد الجاهلية حتى أطلت رابعة على الدنيا بل حتى اليوم ، هو الانقباض والوجوم لولادة البنت ، فجرى أبوها إسماعيل فى تيار أمثاله ، ولولا تدينه وخشيته من قهر زوجته البائسة لأبدى

ما كان فى نفسه ، لكنه كظم الغيظ واصطنع الرضى بما وهب الله ، حتى غاب من وجهه التجهم ، وقد تناغى فى سمعه بكاء بنته الذى ردّه إلى حقيقة الحياة وما تريد .

ولم يكن أبو رابعة فيلسوفاً ليفسر بينه وبين نفسه سر الوجود والأنواع وأحابيل الطبيعة فى بقاء الإنسان ، فالتجاذب الجنسى والتجاوب الروحى والسعى إلى الزواج لم يفلسفه أبو رابعة كما يفعل الحكماء ، وإنما كان فهمه للأمور مقروناً بالقناعة الدينية وما يسخر القدر للناس ، ولعل هذا المسخر الأعظم ، قد أرصد لبنته أياماً لا ينساها التاريخ .

وحين يولد الإنسان لا يعلم أبواه وأهله مصيره ، قد يفرحون أو يحزنون ، وقد يضحكون أو يبكون ، ثم يكون مآله مجهولاً ، وتنكشف الأيام والأعوام عن صفحات حياته وسيرته ، ولو كتب عنا كل شىء منذ الميلاد حتى نهاية الأعمار ، لجاءت الصفحات مجلدات ضخاماً لا تقوى على قراءتها الأعين ، ولا تطيق حملها الأيدى .

يقولون فيما يتصورون من البعث والنشور ، إن الناس حين ينسلون من القبور يمسك كل منهم كتابه بيمين أو شمال ، وكأنى من خلال الأزل أو على باب الأبد ، أنظر إلى رابعة العدوية ، ومعها كتاب ضخم الأوراق أغر الصفحات ، حملته بيمينها

وأوشكت أن تقلب أوله باليسار ، مشفقة من أن ترمى عليه نظرة خاطفة تمر بالصفحات الأولى .

سأقص على القارئ أو القارئة نبأ رابعة وما قد يكون مرّ بحياتها من خير أو شر ، وما الحياة سوى سفرة قصيرة أو طويلة ، وكانت سفرة رابعة مديدة الأمد ، شاقة مرهقة ، وقد تركت أخبارها بعدها تتلوى مثل أغصان شجرة فى مهب الريح ، وذكرياتنا على الأرض تشبه كومة من الرمل لا تزال جاثمة مكانها حتى تثور بها الريح أو تقذف بها يدٌ فتذريها ، وتنقلها حيث تجد لها مستقرًّا أو تذهب ضياعاً ، وكذلك هبت الريح على ذكرى رابعة فتناولها كثير من الباحثين والدارسين ، فبعض أذراها وأقصاها وبعض حولها إلى مكان آخر ، وأنا اليوم أجىء آخر المتشوفين ، لا لأبعثر هذه الذكرى الغالية ولا لأمسك بكومة رمال ، بل لأفتح صفحات مطوية أو متناثرة موزعة فى الشرق والغرب ، فأمد يدى برفق وحذر ، لأضم بعضها إلى بعض مثلما تضم العظام وترم ، من بطل عظيم سقط فى المعركة ، لتلملم وتوضع فى مكان كريم .

فمنذ تلك الليلة التى ولدت فيها رابعة حدث خطب كبير فى حياة امرأة هزت النفوس وحيرت العقول وأرقت الباحثين من عرب ومستشرقين ، وشمر لها رجال التصوف عن أكمامهم الطويلة ،

ليغطوا أقلامهم بالمحابر وأفكارهم تجول بحوادث هذه المرأة الفذة التى رآها بعضهم ملاكاً ورآها غيرهم شيطاناً ، ووجدها بعض آخر جامعة بين الضدين ، ومؤلفة بين النقيضين .

لقد نشأت رابعة بين تدين وحرمان وعفافة ، فأبوها زاهد مستور ، ومن أدب الزهاد التأبى على السؤال ، والاعتصام بالصبر والإيمان ، فكانت رابعة على حداثتها الذكية ونشأتها الواعية تشهد ما يعانى أبواها من الفقر والحذر ، فانطوت على نفسها ، وكأنها ألهمت الصمت ، فهى لا تطالب بمثل ما تطالب به لداتها ، فإذا أعد الطعام أخذت منه قليلاً ، غير متعجلة فى ازدراد اللقمة ، ثم انقلبت حامدةً لله هذه النعمة ، مقلدةً فى الحمد أباها الذى كان يبقى شارد البال أو مستغرقاً فى نومه ليتمتع بأحلامه الدينية ، فمرة كان يرى الرسول عليه السلام فى منامه ، وتارة كان يحلم بالصالحين من عباد الله ، يدخل البيت وليس على كتفيه سوى أطمار فوقها عباءة مهلهلة ناصلة ، وتجول زوجته فى بيتها المتداعى بما يشبه ذلك ، ورابعة مع أخواتها الثلاث تأخذ عنهما الدين والعفة والقناعة ، ويسقط الدعاء فى سمعها ، فتشارك فى الابتهال ، وفى غلس الفجر تستيقظ على صلاة أبيها وهو يجهر بالترتيل والضراعة ، فعرفت إبان تفتحها معنى الحلال والحرام ودار على لسانها كلام المتقين والصالحين ، فما شتمت

أحداً ولا تبرمت بشيء ، بل كانت مهذبة بالفطرة ، فطنة تلقط ما تسمع من فكرة ودعاء .

جلس أهلها ذات عشية للطعام وقد أقبلوا عليه منهومين ، إلا هي تجافت عنه وأعرضت ، فسألها أبوها :

– مالك يا رابعة لماذا لا تأكلين ؟

فأجابته محزونة كئيبة :

– لا أدرى يا أبت هل هذا الطعام حلال أو . . .

فارتاع أبوها لما يسمع من قولها المبكر وسألها :

– أرأيت يا رابعة إن لم نجد حلالاً نأكله أنقدم على الحرام

فقالت :

– نصبر فى الدنيا على جوعنا حتى لا نصبر فى الآخرة على النار !

فى ذلك المساء ، وأم رابعة ترفع ما تبقى من الطعام ، وما تبقى منه شيء ، فقد رفعت القصعة فارغة ، كان أبوها يعجب لهذا الجواب الذى لا يدور مثله إلا فى حلقات المفكرين والذاكرين من الزهاد والمتقشفين ، وقد عاد إلى ذهن إسماعيل أخبار كان يسمعها من شيوخ المساجد والوعظ عن صبية وفتيان ظهرت بواكير العقل فيهم والرجاحة ، وكأنهم رشدوا قبل الأوان ولم يطل عجبه وإنما طالت غبطته لما بدا من رابعة ، وما يلحظ فيها

من ميل إلى العبادة والتقوى .

كانت كلما حفظت سورة من القرآن وتلتها أمامه بخشوع ، متأنية في الآيات متفهمة مغتبطة ، يتساقط دمع الأب على خديه ويقول :

ــ رب لم أعددت هذه الفتاة؟ إنها ليست كلداتها ونظائرها...

وكم بات أبو رابعة متفكراً فى حزن فتاته ، لكنه كان يسمع من شيوخه أن بعض الزاهدين والمتعبدين من دأبهم الحزن والكآبة كان يعاينها وهى تنمو فى حداثتها نمواً مطرداً ، وينمو معها قلبها وصبرها على العبادة مثل الكبار .

نام ليلة وهى تقرأ القرآن ، ولما فتح عينيه فى الصباح وجدها لا تزال مرتلة مبتهلة ، وهى متلفعة بالغطاء مستقبلة القبلة ، وقد رفعت كفيها ومسحت بهما وجهها ، وكأن الدهر أراد قبل أن تقع فيها النكبة أن يعدها للتجلد والاحتمال ، فقد مات أبوها وهى فى مستهل صباها ، ولم تلبث أمها أن توفيت بعده فذاقت رابعة طعم الشقاء ، إذ فقدت الحنان الذى نعمت به حيناً من حداثتها لكنها تجلدت للمصيبة واتخذت من الإيمان والقناعة وسيلة إلى العيش يتيمة معدمة ، تقلب نظرها الشارد فى وجود واسع مثل ضائع يتلمس هدى السبيل .

البصرة العراقية :

نستطيع أن نتخيل البصرة فى العصر الثانى للهجرة وهى فى مطلع عزها ومجدها ، سكنها العرب الفاتحون ، ولم يجعلوها لموقعها الجغرافى مقصورة على التجارة والسياسة ، بل تركوها تفتح صدرها للمعرفة والحضارة ، كما ترفع ذكرها بالعلم والتقوى ، فكانت مدينة عامرة بالمساجد والمعاهد ، وكان مسجدها الكبير مثل جامعة صغيرة على مصطلح أيامنا ، بل كان يشبه فى حلقاته ودراساته بعض المعاهد فى القرن الماضى ، فإن علماءه انقسموا إلى قسمين ، جماعة انصرفوا إلى اللغة والأدب والرواية ، وجماعة عكفوا على الفقه والحديث والجدل ، وكان سكان البصرة فريقين : أحدهما من السراة المترفين ، والآخر من الفقراء والمحرومين فيهم العرب والموالى ، وفيهم الروم والأعاجم ، وكان يبيت رابعة من هذه البيوت الصغيرة المتداعية التى يعيش أهلها على الكفاف أو دونه ، وينامون وأحلامهم شاخصة إلى نعيم المترفين ، وقصور الأمراء والمبطرين .

كانت تتولد إذ ذاك فى نفوس البصريين معانى الثورة على الحياة والمجتمع ، فمن الناقمين طياشون لم يبصرهم العلم والدين ، وإلى جانبهم عباد ومتعففون لا يعبأون بفقر أو غنى ، ولا يكترثون لترف

أو بطر ، فنجا المترفون من حسبانهم ، ولم يلقوا بالهم لغير المتربصين والساخطين .

والبصرة فى ذلك الحين لم تسلم بين عام وعام ، من فتنة أو محنة ، تأتيها من المتشيعين مرة ، ومن الخوارج مرة أخرى ، حتى ضاق الأمويون بأسباب هذه الصدمات فى الربع الأول من القرن الثانى ، وغضبت الطبيعة ذات سنة على هذه البلدة الزاهرة فجفت أرضها وأجدبت ، وأصيبت بقحط وبيل ، كانت شظاياه مصبوبة على الفقراء والمساكين ، ومنهم رابعة وأخواتها فشردن على وجوههن متلمسات كسيرات من الخبز والقوت ، ولم يكن الجوع يوماً رحيماً أو صبوراً ، فنزل بأحشاء رابعة وتضورت أخواتها ، وباتت أياماً طاوية ، منطوية على نفسها ، فقد فقدت هؤلاء الأخوات البائسات ، وبقيت بعد ذلك وحيدة تنادى ربها أن يردهن إليها ويجمع شملهن .

ولما انتشرت المجاعة برز المستغلون من السارقين وباعة الرقيق يقتنصون اللواتى شردهن الجوع ، وعضهن الهوان ، وكانت رابعة من هؤلاء الضحايا فقد تبعها فى طريقها لص أثيم ، هربت منه صارخة مستجيرة ، ثم وقعت على الأرض فأدركها الغاصب وجرها من يدها كإحدى السبايا حتى باعها لتاجر كبير بثمن بخس ؛ وأخذت رابعة تخدم بيت شاريها بصمت وطاعة ، لكن هذا

التاجر كان غليظ القلب فأتعبها بخدمته وأضناها هذا الرق المهين ، ولم يرحم صباها وحزنها ، فإذا خلت رابعة إلى نفسها وصلاتها ، نادت ربها بقولها وهى تبكى وتتلهف :

– إلهى ، أنا يتيمة معذبة ، أرسف فى قيود الرق ، وأنوء بالقهر والضيم ، لكن همى الكبير هو أن أعرف ، أراضٍ أنت عنى أم غير راض ؟

وكان يخيل إليها أنها تسمع جواباً لابتهالها وتوسلها بالرضى والأمان ، وعلى مرور الأيام لم تبق عابئة بتعب أو إرهاق فى خدمة سيدها ، فإن استغراقها فى التماس العفو والرضى من الله كان ينسيها ما تعانى من بلاء وشقاء ، حتى أرسلها سيدها يوماً إلى السوق تشترى له شيئاً ، فاعترض سبيلها ذئب من البشر ، ففرت منه فزعة مرعوبة ، لكن طريق البصرة بما فيها من عطفات لم تمكنها من النجاة بغير عطب ، فوقعت على الأرض وانكسرت ذراعها ، فتحاملت على نفسها ، حتى عادت إلى بيت صاحبها واجمة متلهفة ، ولما انصرفت إلى الصلاة عادت إلى مناجاة ربها :

– إلهى قد انكسرت ذراعى وأنا أعانى الرق والوجع وسأحتمل الضيم والهوان فهل أنت راضٍ عنى ؟ إلهى حسبى رضاك . . .

كذلك يفعل الألم فعله فى النفوس ، فقد كسرت رجل الزاهد الزينونى إيبكتتت ولم يرتفع صوته بشكوى ، ورابعة من هذا

المثال ، فإن أهل الزهادة يعيشون من أنفسهم فى أفق وسيع ، يستصغر كبائر الحوادث ويستهين بالآلام ، وفى الليل وقفت رابعة تؤدى صلاتها وذراعها مشدودة إلى صدرها ، فكانت تجاهد نفسها للتجلد فى هذا الألم ، وقلبها يتمزق من ألم الأسر والرق ، وتدعو الله أن يرحمها ويفك رقها ، وفيما كانت تتوسل وتتضرع أحس سيدها أنها متعبة قلقة ، وقد تسرب إلى سمعه أنينها ودعاؤها وهى تقول :

– إلهى أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك ، ونور عينى فى خدمتك ، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن مناجاتك لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبادك . . .

وفزع الرجل مما سمع ، وهالته لهفة رابعة وضراعتها ، فحدثته نفسه بشئ ، وهم بأمر ، وأرسل نظره نحوها يتأمل فى خشوعها حتى خيل إليه أنه يرى فوق رأسها سراجاً منيراً يضىء ما حولها ، فهب من فوره منادياً رابعة . . . ملتمساً منها أن تصفح عنه وتأخذ حريتها قائلاً لها :

– أنت حرة يا رابعة ، إن شئت بقيت عندى ، وإن شئت مضت حيثما يروقك العيش . . .

ما رابعة فما كادت تسمع كلمة الحرية حتى نهضت ، خرجاً ، وترجو سماحاً وفرجا .

مضت من عند سيدها تتنفس الصعداء ، وتتخفف من وقر الرق الذي أمضها ، وربما قلبت كفيها فى شعاع الشمس ترفعهما بالحمد لله الذى أنقذها من عذاب لم يفارقها ، منذ مات أبواها ، فإذا تنهدت وأحست الطمأنينة عادت تنظر فى كفيها مرة ثانية ، وتتبع الشقوق فى راحتيها وأظافرها من طول ما غسلت وخدمت دون رحمة أو مكرمة ، حتى كاد يذهب رونقها ويغيب صباها وهى فى عز عمرها ، ومن يدرى أين كان مستقرها بعد أن انطلقت من عند سيدها حرة حائرة ؟

لا أرتاب فى أنها كانت مثل أى أسير حين يفتح له باب السجن ، إنه لينظر إلى الحياة نظرة جديدة ، ويحس أنه خلق من جديد ، وإذا طال حبسه تبدل فى عينيه كل شىء فارتاب فى الأصحاب ، وتنكر للأقرباء ، وحسب أن كل شىء فى الحياة يلاحقه ليعيده إلى السجن .

ولم يشعر أحد شعور رابعة بنعيم الحرية التى أضناها الشوق إليها إلا طائر غريد كان حبيس قفص ، ثم نشر جناحيه فى الفضاء ، وحط على الغصون ، ولا ندرى أين حطت رابعة ؟ فهل بقيت فى البصرة التى شهدت حزنها وهوانها منذ أبصرت النور ؟ ما أحسب ذلك ؛ وهل انطلقت إلى الكوفة وهى لا تعرف فيها أحداً ، أو انحدرت إلى البادية وديار الشام ؟ كل هذا لا يزال

فى ضمير التاريخ ، لم يصل إليه البحث الطويل ولا التقصى الدائب ، ولا ساعفت فيه النصوص .

والبصرة موطنها ومأواها وإن قسا عليها وجار ، فقد أحبته وفضلته ، وعرفت دروبه ومسالكه ، وألفت مسجده الوقور وسوقه المزدحمة ، وتنقلت بين مجالس الذكر وحلقات المعرفة والدين ، لكن انطلاق رابعة بعد الأسر والرق غير مجرى حياتها وكان بديهيـًّا فيما جرى عليه السبى والاستعباد أن يكون العبد ملك سيده يتصرف فيه كما يشاء ، فهل نجت رابعة من سيدها الذى اشتراها ، وهل سلمت من ذلك السارق الذى باعها ؟ كل هذا تخمين وحسبان لما يقع من أحابيل العبودية والاسترقاق ، فإذا كانت رابعة قد لقيت من ذلك شيئاً يؤذيها ويمس عفتها ، فإن ذلك الاغتصاب المرير قد يكون سبب التغير فى مجرى حياتها وسيرتها ، بعد الجائحة الفظيعة والرق الوجيع .

يقال إن النفوس تتصدى أحياناً لتطور وانقلاب فى مشاعرها وأطوارها ، كالذى يكون فى حياة الأمم والشعوب ، وما كانت النفس الإنسانية إلا أمة كاملة تنبثق فيها الثورات ، وتلم بها الأحداث ويدهمها الانقلاب والتغيير ، وفى الدنيا متعسفون ومنحرفون تمرسوا بالخطايا ثم انقلبوا مستغفرين تائبين ، وباتوا على استقامة وهداية ، وفيها الأضداد والتناقض فى الأفراد والجماعات

وازدواج الشخصيات ، وقد يتفق أن تنبع فكرة الخير والفداء الروحى والوجدانى من شرير قاطع طريق ، وكم تراقص الشيطان وتلعب بين أعين ناسكين زاهدين أكبوا على كتب الوعظ والدين وقد طالت لحاهم وخشنت مسوحهم ، وتألقت عمائمهم ، فقفزوا من صوامعهم ومحاريبهم وراء الفتنة والغواية .

أكتب هذا وأنا أتصور القس بافنوس ، وهو يهيم على وجهه من « طيبة » فى أواسط مصر العتيقة وقد ضرب فى الصحراء حافياً حتى جاء الإسكندرية مترامياً على تاييس العارية ، وتاييس نفسها التى عبق مجلسها بالبخور والخمور ، وضج قصرها بالمجون والفجور ، ألم تنقلب وهى تدلف إلى الموت قديسة ؟

إن فى الدنيا أعاجيب وفى العالم خوارق وبغتات ، وهذا نفسه قد يكون اتفق مثله لرابعة بعد انطلاقها من عبوديتها ، ورب نزوة منها كانت انتقاماً مما عاينته فى حياتها البائسة فإذا هامت على وجهها وهى فى ريعان صباها ، وأغرتها مسحة جمال وفرحة حرية وأمان ، فانسابت مع التيار الذى جرف أمثالها من أجل الخبز وخشية التشرد فإن فى التعليل النفسى مندوحة للبحث والمقارنة والتأويل .

وتبدل النفوس أمر طبيعى ، فما ولد أحد وظل على شأنه الأول أو فى وتيرة واحدة حتى مات ، فالحياة مثل الأرض فيها

سهول وجبال وفيها أودية وقمم ، تعلو بنا وتهبط ولا يدرى امرؤ ما هو المصير ؛

وقد صارت رابعة بعد انفلاتها من الرق والأسر إلى حياة الغيد المتحررات ، عرفت فيها معيشة جديدة ، وضمتها ليال عاطرة زاهرة وتناءت حيناً عما ألفته فى نشأتها من انقباض وخشونة وتعفف ، أكانت تنقم من تحررها وتبدلها لأنهما لم يعصماها من العبودية والانزلاق ؟ أم أن شدة التزمت والتعنت والغلو فى الكبت والتقشف ، انقلبا إلى الضد فى حياتها المتغيرة الحائرة ؟ وهذا ما يتعرض لمثله الناس فى كل زمان ومكان ، على اختلاف الأجناس والأديان .

ما أكثر الصور التى تزاحمت على خاطرى وأنا أكتب عن رابعة فى إبان تحولها ؛ إن بينى وبينها قروناً متطاولة ، وأوراقها التى تحمل حوادثها ، وأخبار زهدها منشورة حولى ، تدلنى عليها وتحفزنى للبحث عما خفى من شؤونها وشجونها ، ففى انسياق النظر وتقصى الخبر ، ينطلق خاطرى وتفكيرى عبر الفضاء والسنين ، فأرى الغوانى الهائمات والصبايا المغرمات اللاتى صورهن بيير لوئيس فى تاييس ، وأغانى بيليتيس ، كن مع استخفافهن بالتقوى يملن للتقوى وهن فى غمرة المجون ، كانت الغانية القبرسية « منازيديكا » تتمنى أن يكتب على قبرها : ها هنا ترقد أتقى

امرأة . . . بعد أن تمرست زمناً بالتهتك والخلاعة .

كل هذا تخمين واستنباط أنساق إليه بمقدار ، وعلى حذر وتمحيص ، لأنى لم أجد فى المظان التاريخية والكتب الصوفية ما يعين على التثبت فى هذا الأمر ويؤدى إلى الحقيقة والتأكيد، فمن المؤلفين والباحثين من تحرى أخبار رابعة وتقصاها فى عديد من المصادر فلم يجد فيها ما يلقى الضوء على هذه الفترة من حياتها المبهمة ، ومنهم من راح يؤول أقوال السلف فى سلوك رابعة بعد تحررها وانطلاقها مستعيناً بلمحات ولقطات عن سيرتها الأولى متخذاً منها سبيلاً إلى إرواء الغلة فى زعمه ووهمه، أو مشايعة من سبقه إلى رأيه ودليله ، سواء كان خالصاً لوجه العلم والحقيقة أم لتأييد دس وتشنيع ، على أنى لا أقرر قواعد البحث وأنا أتتبع أنباء رابعة وحوادثها فى هذه المرحلة الغامضة ، لأن تقرير القواعد ليس من شأنى وإن كان أولاها بالذكر والاعتبار وأجدرها بالتقديم هى الصيانة التاريخية والتتبع المنطقى وأريد أن أقول إن التاريخ حرم آمن لا ينبغى التزيد فيه والتنقص منه ، وإن كان تاريخنا لا يخلو منهما تبعاً لأغراض مؤلفيه ووفقاً للظروف التى سايروها ، فهو محدد مقوم ذو تبعات وحرمة ، ولا يملك المؤرخ التصرف فيه كما يملك الأديب فيما يصنع من قصة أو مقال ، ولا بد عند الإلمام بسر رابعة وحقيقتها فى هذه الفترة الحائرة من

شعاع كاشف للتأويل والتحليل، طالما أننا لا نجد نصوصاً كافية ولا متوناً ثابتة، لم يتسرب إليها الالتباس والتحريف، تبين الخفايا من هذه الحياة وتردها إلى أسبابها، ولم يقم ثم برهان واضح محتوم على الادعاء بأن رابعة قد انحرفت أو تعسفت بعد انفكاكها من الرق والاستعباد، وانفلاتها حرة إلى الصحراء ولعلها تزوجت فشقيت، أو أحبت فخابت، وهذا أقرب إلى التخمين المتحرز والتعليل المعقول وكانت الصدمة عنيفة بالغة، يضاف إلى ذلك أن رابعة وإن أطلق مولاها أسرها حرة لوجه الله، لكنها خرجت من لدنه معدودة من الموالى، تحس قيد الولاء فى روحها وقلبها، وكان هذا الحكم الموروث قاسياً عليها وهو من تقاليد العرب إذ ذاك.

وكان لقضية الموالى مجال فسيح فى حياة العرب، وبخاصة فى عهد الأمويين الذين غلوا فى عروبتهم وأصالتهم وكانت سياستهم المبنية على العزة بالنسب والأمجاد، فى المغازى والفتوح، تجعلهم يرون لأنفسهم حقاً لم يجيزوه للموالى الذين ضاقوا بهذا التفاوت، فنشأت مشكلات كان المدار فى بحثها وحلها سبيلاً إلى إطعام ألوف من الفقهاء خبزهم اليومى، وألف فيها المشرعون الأوائل كتباً عديدة، وتناول موضوع الموالى الأدباء والمؤرخون فى القديم والحديث لعلاقة الفن والفكر ومنابع الشعور بالولاء

والمولى ، وقد نبغ من الموالى شعراء وعلماء بذوا الأحرار وتقدموهم بالنبوغ والطموح وبراعة التدبير والخطاب ، لكن طابع الولاء كان ينغصهم ويموه لهم معانى الحرية ولا ينجيهم من العقد النفسية .

ومن الجائز وفاقاً لما بين يدى من حجة ومقارنة أن تكون رابعة قد نكبت وخابت ، فى شأن من شؤونها ، أو أصيبت بحادثة خاصة ، لا ندرى ما هى على التأكيد والتحديد ، فكانت منها تلك الانتفاضة العنيفة ، بل ذلك الانفجار الروحى العميق الذى بدل حياتها كل تبديل ، ولهذا دخلت فجاءة فى سلك الزاهدين من قومها ، ورغبت عن مباهج الدنيا ، وهى فى عنفوان العمر ، مفضلة عليها مجالس الوعظ والأذكار . وما عرفنا من قبل ولا من بعد فيمن روى التاريخ أخبارهن من آثرت التقشف والرهبانية دون سبب ، لا سيما إذا أوتيت المرأة الرجاحة والملاحة والبسطة فى المال والحرية .

ولقد أوتيت رابعة وعياً مبكراً ، وذكاء متوقداً ، وفهماً عميقاً لأمور الدين مما حفزها للإقبال على علماء عصرها ، تتلقى فى حلقاتهم ما يتلقى الرجال ، بل كانت تفوقهم وتسبقهم فى تفهم الخفايا والدقائق فى الفقه والحديث وفى الشرح والتفسير ، لا تفوتها صغيرة ولا كبيرة من تعاليم الدين حتى حفظت جانباً كبيراً من الحديث ، وكان حفظ الحديث فى أيامها علماً أساسياً لكل

متعلم ومتدين ، أراد أن يهب نفسه للمعرفة والتحصيل ، وقد عاش في هذا الجو العلمي الوقور طائفة من المفكرين والمتبحرين في الفقه والرواية واللغة ، تقاسمتهم البصرة بلدة رابعة التي ضمت الأضداد في المعرفة والحياة ، وفي الوجهة والمعاملة ، والكوفة التي ازدحمت مجالسها وحلقاتها بأهل النحو والجدل وفقهاء المذاهب والتوحيد ، وشيوخ الشرح والتفسير وكان لأعلام هؤلاء في البلدتين ، وما جاورهما ، أثر كبير في الحياة الدينية والاجتماعية بل كاد يكون كل منهم مدرسة سيارة ، لما أوتي من سعة المعرفة وبراعة الكلام ، وإلى جانب المتنافسين في التفقه والنحو والبيان ، قامت حلقات الذكر والتصوف والموعظة ، وثمّ بين الطرفين ساد مذهب في الحياة ، سيطر على كثير من المتدينين والناقمين على الترف والانحراف في السياسة والمجتمع ، هو الزهادة في كل شيء إلا في الله ولله ، فكان الزاهد يعزف عن بيته وأهله ، ليتفرغ للدرس والعبادة ، ويعيش عزباً متهجداً ، قواماً في الليل صائماً بالنهار ، وقد جمع الزهد بينه وبين أمثاله وسيطرت عليهم نزعة الحزن والوله ، فما عرفت وجوههم ضحكاً ، ولا افترت أفواههم عن ابتسامات ، إلا كان فيها التهكم والمرارة ، وكثيراً ما كانوا يمضون الساعات الطوال في عبادة مجهدة ، وبكاء متلهف ، حتى سماهم القوم بالمتعبدين والبكائين ، ومن أشهرهم رباح بن عمرو القيسي

وسفيان الثورى ومالك بن دينار ، وعبد الواحد بن زيد ، وكانت رابعة العدوية أبرز هؤلاء فيما أخذوا به من زهادة وعبادة ، وقد شهدت ليالى عمرها بعكوفها على التهجد والصلاة متوسلة متبتلة ، فكانت إذا أخذتها سنة من النوم هبت باكية متندمة ، تلوم نفسها وتعنفها ، لغفلتها فى تلك السهوة عن ذكر الله ، فإذا صلت العشاء قامت على سطح لها ، وشدت عليها قميصها وخمارها ثم قالت :

ـ إلهى أنارت النجوم ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك . . .

ولا تلبث أن تعود إلى صلاتها طوال الليل حتى السحر ، فتأخذ فى ترتيل القرآن ريثما يسفر الصبح ، وتجدد دعاءها فى هذا القول :

ـ إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى ، أقبلت منى صلاتى أم رددتها إلىّ ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ، وعزتك لو طردتنى من بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك . . .

كانت رابعة كلما غلبها النوم فأخذتها غفوة أو سهوة استيقظت مرتاعة فزعة ، مبتهلة إلى الله مستغيثة بقولها :

ـ قد نامت الأعين وغفل الغافلون وبقيت رابعة الخاطئة

بين يديك ، تنظر إليها نظرة تمنعها بها عن النوم . . . وعزتك وجلالك ، لا أنام عن خدمتك فى ليل أو نهار إلا غلبة حتى ألقاك . . .

وجاهدت النوم طويلاً ، وحاسبت نفسها حساباً عسيراً ، ومما كانت تردده من ملامة لها كلما هجعت فى مصلاها :

— يا نفس ؛ كم تنامين ، وإلى متى تهجعين ،أوشكت أن تنامى نومة لا تنهضين منها إلا لصرخة يوم النشور . . .

وحقاً كانت رابعة لاتكف عن تعنيف نفسها ،إذ تريدها دوماً يقظة مأخوذة بذكر الله ، لا تغفل عنه لحظة ،ولا تنقاد فى تهجدها لسهو أو فتور .

كان انصراف رابعة عن الدنيا، واعتكافها صائمة متوجهة إلى الله وحده ظاهرةً من ظواهر عصرها وقبيلها ، تجلت فى كثير من ذوى النفوس الكبيرة التى آسفها أن يشيع الترف واللهو فى حياة المسلمين، بعد أن تفتحت لهم أبواب الحضارة والدنيا ، وتسربت إليهم أسباب اللهو والمجون ، فتلهوا عن ذكر الله وتعاليمه ، وغفل بعضهم عن تكاليف الفتح والدين ، وقد شغل أكثرهم التنافس فى العصبية والتكالب على الحكم والمال ، كما أن فريقاً منهم ورثوا الحقد منذ غادر الخليفة عثمان بن عفان دنياهم شهيداً مهدور الدم دون انتقام، فهدهدوا مواجدهم بالزهد

فيما أخذ به غيرهم من المترفين والمتلهين ، وكان هذا الزهد هو الكهف الهادئ المطمئن لهؤلاء الفارين من داء العرب ، ومفاتن الحضارة والمعيشة ، ومنازع الفكر والجدل فى الحياة الجديدة . بل هو على الدوام فى كل عصر ومصر وفى الأديان جميعاً كان خاضعاً لأكثر هذه الأسباب والعوامل الباطنة والظاهرة ، ومعناه الهروب من الواقع ، وفى مرماه العزاء عن فقدان شيء أو حرمانه على الغالب ، وقليل ما هم الزاهدون للزهد نفسه .

ورابعة العدوية التى انتظمت فى سلك الزهاد من قومها وبلدها ، لم تكن إلا هاربة من حقيقتها المرة ، ومن مرارتها مشاعر الخوف والندم اللذين لا يكونان إلا من زلات وهفوات ، تلاحق صاحبها مهما خفيت ، أو كانت خفيفة طفيفة .

على أن المتتبع لحياة طائفة من الزهاد المسلمين ، يرد غلوهم فى التقشف والنسك إلى أسباب نفسية مختلفة ، وقل أن تكون الزهادة سجية وطبعاً ، لأن من جبلة الإنسان وغريزته الرغبة والطلب ، فوراء الزاهد إذن ترقد حادثة ، أو تتوارى محنة وكارثة ، وقد يدفن الحادثة فى أعماق نفسه ، ومن الزهاد من أصيب بماله أو عزه أو حبيب إلى قلبه ، فلجأ إلى الزهد يطوى فيه همومه ويتناسى أساه .

والزهد ذاته فى ذلك الحين ، كان مستمد الأصول والتعاليم من رائده الأول « الحسن البصرى » الذى اتخذ فى زهده الحزن

والورع شعاراً ، وقد شغلته فى حياته الدينية ، أخبار الموت وموقف الحساب وهول الجحيم فكانت رهبته من الآخرة ، موضوع حديثه لصحبه ومتبعيه ، وهو الذى تمرس بالجهاد والمجتمع ، حتى آل أمره إلى التقشف والتقوى ، وكان يجد فى حياته العلمية والدينية قناعة الروح وعزاء النفس ، عن كل ما مسه وأصابه من جراء التقاليد العربية فى المقاييس والأنساب مستعيضاً بعزّة التقوى وكرامة العلم عن كل جاه ، حتى شاع ذكره وفضله فى البصرة بالمحبة والوقار ، فإذا تحدث القوم بالفقه والبيان والزهادة قالوا هو الإمام فى هذه المزايا كلها والعميد .

ولقد شهدت البصرة الزاهرة فى زمن عمره الذى امتد من ميلاده سنة ٢١ هجرية إلى ١١٠ عام وفاته أستاذ عصر ، علم فيه أجيالاً وأشاع مذهباً فى الدين كان يدعو إليه فى قوله وعمله ولو اتبعه كل من سمعه وعرفه لسد آفاق البلاد بالزهاد ، لكن الدنيا ومرادها أهون من أن يتعادى أهلها ويتفانوا من أجلها ، كانت بمطالبها ومطامعها ، أقوى من هذا المذهب وأبقى ، فردت الكثيرين عنه ، وبقى فى ساحته المخلصون له والمتمرسون به ، وقد ازدادوا عدداً على ذيوع الدعوة وامتداد الزمن إلى أيام رابعة العدوية التى كانت بعد الحسن البصرى نجم الهداية والمعرفة ونجىّ الواهين والزاهدين .

تجلى هذا الزهد فى أوسع صوره ، بتجافى أهله وذويه عن متاع الدنيا ومكاسب الحياة ، وبتفضيل العزوبة على الزواج والأخذ بالتوكل على الله فى الرزق دون السعى ، وتكليف النفس ما لا طاقة لها به من كبت ومجهود .

كل هذا ما عرفه الإسلام فى حقيقته ومراده ، وما كان من حديث الرسول وسنته ، بل كان تحقيقاً لشعور مبهم نازعت النفس إليه فى أطوار مختلفة ، وقد رأى الرسول عليه السلام تقشف بعض الزاهدين من أخيار المؤمنين ، فنهاهم عن الغلو فى ما أخذوا به أنفسهم من تعنت وإعراض عن مطالب الحياة ، وراح العلماء والفقهاء من هؤلاء يفسرون آيات القرآن ، كما شاءت منازعهم وأهواؤهم بما يوافق مزاجهم وظروفهم وتفكيرهم ، وقد فاتهم أن الإسلام دين عمل للدنيا والآخرة ، ودستور جهاد لخير الوجود ، وكان رسوله نفسه يمارس المجتمع ، ويأخذ بأسباب الحياة الطيبة ، كما اقتضت الدعوة والرسالة ، وكما تطلبت الإنسانية التى جاءت إلى الدنيا لتنمو وتسمو ، وتتمتع وتبنى ، لا لتنهزم وتجدب وتتوارى . . .

فمذهب الزهاد هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ، وغيروا فى معالم الدين ، كان بدعاً مما أراده الإسلام ، ومغالطة منهم للحقيقة وحاجة النفس والزمن ، ونحن من وراء العصور نأسف لانزواء

هؤلاء الزهاد وتناسيهم ، وفيهم العلماء والحكماء ما كان يحيط ببلاد العرب فى أيامهم من خصوم وحساد ، سواء كانوا من الروم وغيرهم من أهل الأمصار المغلوبة ، وكانت الأمة العربية فى إبان بنائها وإقامة قواعدها وإتمام مكارمها ، فكان الزهد وبدعته الجارفة سبيلاً إلى تخدير النفوس وشد الأعناق إلى الوراء لقد تعسفوا واشتطوا فى ما أرادوا منه الخير ، وكان انتكاساً وتخلفاً لمن اقتدى بهم ، وتابعهم على مذهبهم ، وإلى وجهتهم على ترادف الأيام ، وقد نسبت إليهم أمور لم يعالجوها ، وتسربت إلى مذهبهم الأول ، بدع كثيرة غيرت أصله وغايته ، وما كان الزهد فى أوائل أهله من العرب المسلمين مقتبساً من دينهم الجديد الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وإنما كانت ترد منابته إلى تقاليد مسيحية فى الجاهلية وإلى ما كان ينزع إليه عباد الفرس والهند ، ولكم اختلفت الآراء حول هذه الصوفية التى دخلت فى حياة الزاهدين ، وتلفت الباحثون صوب مصادرها الأصيلة يتساءلون ويؤولون ، فردوها إلى التعاليم الهندية حيناً ، وحيناً إلى الأفلاطونية ، وغلا بعضهم فى عدها من المجوسية التى اعتصمت بشمال إيران بعد الفتح الإسلامى .

وكان مما ينبغى لهؤلاء الزهاد الذين شرح الله صدورهم للهدى والإيمان والمعرفة ، أن لا يؤثروا الهزيمة والانطواء وذم الدنيا

وتعيير المقبلين عليها ، بل كان من حقهم ومن التكاليف المنوطة بهم ، وهم الذين استنارت قلوبهم وتمرسوا بالجهاد والعلم وأعرضوا عن مطامع الدنيا أن يعالجوا مرض العصر الذى فشا فى قومهم وبلادهم ، وأشده وأدهاه اللهو والمجون ، والعصبية الطاغية والتحيز الممقوت ، ولا أتعنت أو أتعسف ، فلا أذكر من هؤلاءالزاهدين من جهروا بالحقيقة ، ودلوا على المساوئ والانحراف ، وتصدوا لغضب الطغاة ، لكنهم قليل ، وما أصاب الناس من عدوى الزهد واصطناعه كثير ، ونحن اليوم فى مشابه من تلك الظروف والأسباب ، فهل إذا رأينا بيننا من يقوم بالدعوة للزهادة ، وإهمال الدنيا ، والانصراف إلى الآخرة بغية التقويم والإصلاح ، ورد الناس عما هم فيه من اضطراب وانحراف ، نحمد له هذه الدعوة ونستجيب لها ونجد فيها الدواء ، وإن تفاوتت بيننا الوسائل وعم الوعى اليوم وتغير الزمن ؟

ولعل هؤلاء الزهاد القدامى الذين أخذوا بمذهب الحسن البصرى ، كانوا من دنياهم فى وضع عصيب لجأوا به إلى التخفف أو بالوهم ، مما كانوا فيه من حرج أو عسر وضغط أو ميل إلى النسك والزهد ، وما كانوا على التحقيق مذبذبين مرائين فيما ذهبوا إليه ، واتخذوه دعوة ووسيلة إلى الله ، وتغيير أنفسهم ، وتقويم من كان حولهم من المريدين والمقتدين ، فكان فى

صدورهم يقيناً وإيماناً أضاء بصائرهم وسما بأرواحهم إلى علام الغيوب ، ولكم صفقت أبوابهم ودقت ، فلما فتحوها وجدوا أعوان الحكام حاملين إليهم العطايا ، لعلهم يخوضون فى الدنيا كما خاض غيرهم ، ويسعون إلى رضى السلطان ، فكانوا يصرفون هؤلاء الأعوان إما بالاعتذار أو بالعنف والتهكم ، وقد بلغ من أحد الزاهدين أن كان جوابه لمثل هؤلاء :

ـ ما دمت أجد مثل هذه الكسرة الجافة من الخبز فحسبي هذه النعمة . . .

ورابعة التى كانت من أشد الزهاد انصرافاً عن متاع الدنيا وهى المرأة التى تغريها المفاتن ، وتستميلها زينة الحياة ، زهدت فى كل شىء ، قانعة بمايسد الرمق ويستر الجسم ، ويقيها الإعواز والسؤال ، فالدين وحده كان الشعاع الأعظم الذى أغناها عن كل ما تأخذ به أية امرأة ، ثم كان التزامها المشيخة والصوفية ومتابعة التفقه فى شؤون الدين والتقرب إلى الله مشغلة لها عن كل شىء . . . لم تعبأ بشباب العمر ولا بمطالبه فقد وهبته للعبادة والتهجد ، ورضيت بالتقشف وما يسد الرمق ويبقى على العافية لتستمتع بالتقوى والمعرفة والإيمان وكان الفيض الإلهى يناديها فى سرها وجهرها ، فراحت فى صلاتها وتسبيحها تنشد رضى الله وتسكب روحها الشفافة ووجودها كله فى كل ما تحس وتعتقد

أنه يقربها من الخالق ، وقد دارت فى زهادتها حول نقطة واحدة كانت غاية الزهد فى أيامها وهى الاستخفاف بالدنيا والبكاء من أجل الآخرة خوفاً وشوقاً ، والتماساً للتوبة ، والمغفرة ، وحين طرق بابها طارق للزواج ، وهى فى إبان المجاهدة والعبادة ، صدته بعنف وإباء ، متهكمة بمن جاء يغريها من أجل نفسه أو غيره ، ولما أراد أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى أن يتزوج ، سأل عمن تليق به من النساء ، فأجمع من استشارهم على أن تكون رابعة. وتقدم لخطبتها هذا الأمير قائلاً : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أجعلها لك فكتبت إليه :

« أما بعد فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن والرغبة تورث الهم والحزن ، فهيئ مزادك وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصم الدهر واجعل فطرك الموت وأما أنا فلو خولنى الله أمثال ما حزت وأضعافه لم يسرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين والسلام » .

وخطب رابعة زاهد مثلها عرف بالعلم والتصوف هو عبدالواحد ابن زيد فحجبته عنها أياماً ، ولم تشأ أن تراه مستفظعة منه إقدامه على خطبتها للزواج ، لقد أرسلت إليه تؤنبه وتلومه ، لأنه يريد أن يصرفها عما أخذت به نفسها من العبادة والعزبة ، لتتفرغ إلى صلاتها ونسكها ، وهو الزاهد مثلها ، وفى ذلك معه رجعة إلى

الدنيا ، وإقبال على متاعها ومشاغلها . . . وهذا الإعراض منها على الزواج وتأنيب من دعاها إليه من الزهاد هو تأييد لمذهب الحسن البصرى الذى كان يرى الزواج مشغلة عن التهجد وذكر الله فمن قوله : « إذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » .

ولما سئلت رابعة لماذا لا تتزوجين ؟ أجابت :

ـ هناك ثلاثة أشياء هى سبب الهم عندى ، فإذا وجد من يخلصنى منها تزوجت !

وأردف السائل ، وما هى هذه الأشياء ؟ فقالت :

ـ الأول هل إذا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً ؟ والثانى إذا كنت سأعطى كتابى بيمينى يوم القيامة ، والثالث إذا جاء يوم البعث وأخذ أصحاب الميمنة إلى الجنة وأصحاب المشأمة إلى السعير ، فمن أى الفريقين سأكون ؟

ولم يجد السائل ما يجيب به سوى قوله :

ـ لا أعرف شيئاً عما سألته ، إنما علمه عند ربى فقالت رابعة :

ـ إذا كان الأمر كذلك وأنا فى قلق من هذه الأشياء فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له ؟

من هذا الكلام وأشباهه فيما روى عن رابعة وجاء فى أخبارها

يتبين لنا أن رابعة استمسكت برأيها فى الزهد والتفرغ للعبادة والإعراض عن كل ما يربطها بالدنيا ، وأخطر مظهر لهذا الإعراض هو الامتناع من الزواج وهو أمنية المرأة وبغيتها فى الحياة . . .

أبت رابعة الزواج لتجارى إخوانها العزّاب من الزهاد ، ولترضى نزعة فى نفسها المتجردة ، بالانقطاع لله وحده والارتفاع بالروح عن غريزة الجسد ، فقد أحست أنها صارت من القداسة والبرء والخلوص بحيث لا ينبغى لها أن تتزوج وتشغل طرفة عين بغير ذكر الله ومحبته والتماس رضاه ، وكانت عقيدة الزهاد تزين لهم العزوبة والتخفف من تكاليف الحياة لأن المتزوج يخاف الفقر ويحب الادخار ، وهم لا يخشون إلا الله وعذاب الآخرة ، فألقوا بأنفسهم فى وحشة الزهادة لأنهم وجدوا باطل الدنيا سبباً لكثير من الخطايا ، وكان الرعب من البعث والنشور ، والحساب والعقاب وما كان ينسجه لهم بعض المهولين من المفسرين لآيات القرآن وأحاديث الرسول مما حاد بهم عن السداد والصواب فغلوا فى أوهامهم وتأويل ما حفظوا وسمعوا من أخبار الآخرة وقد فهموا أن نعيمها الخالد هو ثواب العابدين المتهجدين ، وأن جحيمها المبيد هو عقاب المنغمسين فى الدنيا والغافلين عن ذكر الله .

ولقد وصلت إلى رابعة أنباء الذين سبقوا فى الزهد ، فرويت عنهم من الحوادث والحكايات ما يشبه الأساطير ، فمنهم من

أدرك عهد الرسول عليه السلام واستنكر الرسول غلوه فى التزهد والتزمت ، والانقطاع عن الدنيا وهو القائل : إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » لكن غلاة الزهد أخذوا بالشق الثانى من هذا القول المأثور ، وراحوا يفتنون الأفانين القاسية والنابية فى الندامة والتوبة للتخلص من الخطيئة والتماس العفو عما هموا أو اقترفوا من سوء ومنكر .

من هؤلاء بهلول بن ذؤيب الذى ارتدى الشعر الخشن وقيد يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد ، ولجأ إلى جبل بضواحى المدينة رافعاً رأسه إلى السماء مستغيثاً بالله :

— يا رب ، انظر إلى عبدك الراسف فى قيوده ، المعترف بذنبه . . .

ومثل بهلول أبو لبابة الذى أثم وخان ، فقيد جسمه بعمود فى مسجد المدينة ، وبقى مقيداً تعذبه الندامة حتى أحس أن الله قد غفر له ذنبه .

وغير هذين من اعتصم بالصمت أياماً وأعواماً تكفيراً عن خطيئة أو مساءة ، فلما وصل خبره إلى الخليفة أبى بكر الصديق ردعه وقرعه ، وعد عمله من بقايا الجاهلية ومنهم من انقطع إلى الصلاة فى المسجد لا يغادره حتى يحدثه قلبه بالغفران ، وبعض هؤلاء المتشددين سلكوا طريق الحج مشاة حفاة ، مرتجين أن يضاعف

لهم ربهم ثواب الحج ، ويغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر . وقيل إن إبراهيم بن أدهم مضّى أربعين عاماً وهو يجتاز الصحراء حتى بلغ الكعبة ، وطوف أحدهم بالكعبة مقوداً كالجمل بحلقة من أنفه تعذيباً لنفسه وجسمه ، فكانت هذه البدعة فى الزهادة داعية لزجر الآخذين بها أو السخرية منهم ، لأن الدين يأباها وما أراد لمعتنقيه إلا اليسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وثم أحاديث متعددة المظان والمصادر فى تاريخ الزهد تروى العجب العجاب عما فعل هؤلاء الذين عذبوا أنفسهم وأجسامهم خوفاً من عذاب الآخرة فكرهوا الدنيا وأجفلوا من أهلها ، وهاموا على وجوههم فى الصحراء ، أو لجأوا إلى الكهوف ، وعاشوا بين القبور ، ناسكين مستغفرين ، باكين من خشية الله ، ما كان أغناهم عن هذا الإرهاق الوبيل ! لقد ضيعوا العمر وتعطلوا ، فلو كافحوا للحياة وجاهدوا فى الله لخير المجتمع وخدمة العلم والدين ، لكان هذا أفضل وأبقى .

وكان رباح بن عمرو القيسى صديق رابعة فى المذهب والرأى والعبادة من هؤلاء الهيم البكائين ، وكأنه فى مأتم لا يريم ، ما يرى إلا والهاً حزيناً ، فإذا سئل عما يبكيه قال :

— يحق لأهل المصائب والخطايا أن يبكوا . . .

وكثيراً ما شوهد رباح واضعاً فى رقبته قيداً من حديد ،

يشده وهو يتضرع ، ويدعو الله أن يتقبل توبته وعبادته ، حتى يشتد عليه الألم بإحساس الندم ، ويهجع فى مصلاه ، ليعاود التوسل والابتهال ، بعد أن يصحو من غفوة أو إغماء .

والحقيقة التى تكشف عنها نواظر التحليل النفسى لهؤلاء الزهاد أنهم جعلوا أنفسهم من حيث لا يعلمون نقطة البدء والانتهاء فى الدنيا والآخرة ، بل بتعبير آخر ، وضعوا أنفسهم فى مركز الحركة ، وجعلوا كل شىء حولهم عائداً إليهم ، من حيث لم يشعروا أنهم هم العائدون إليه ، فالدنيا بنظرهم واعتقادهم دار موقوتة فانية ، والآخرة دار باقية ، بل إن الدنيا لديهم درب ووسيلة ، والآخرة مصير وغاية ، فوقر فى أذهان أكثرهم أن من ضحى بهذه الدنيا كسب الآخرة ، وهل كان الرمز الأكبر للفداء والإيثار إلا الزهد فيما أخذ به غيرهم طمعاً بالأفضل عندهم ، فصغرت الدنيا بأعينهم وبدت تافهة حقيرة ، ويدلنا على هذا التيار الجارف ضد الدنيا ما رددوه بأقوالهم ومارسوه بأفعالهم ، حتى لم يسلم الشعر أيامهم من ذم الدنيا ، فتسربت إليه تلاوين ونفثات من تعاليمهم ومرامهم ، وأبو نواس نفسه الذى جاء بعد هؤلاء وملأ دنياه مجوناً وعبثاً بما أشاع من شعره الداعر لم يخل قصيده من لمحات زهدية ، وخشية من الآخرة ، حتى قال بيته المشهور :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ولما سمع هذا البيت زعيم الزهد فى عصره أبو العتاهية شرق بريقه أسفاً على ما صنع فى عمره من الشعر ، وتمنى أن يكون له هذا البيت وحده ، بديلاً من شعره كله ، وأبو العتاهية ذاته يردنا إلى الزهاد ؛ وينزلنا فى صميم حياتهم ، وهو لم يكن منهم فى صدر حياته ، وإنما نسب إليه الهوى والمجون فى عزّ عمره ثم صار زاهداً عابداً رجوعاً إلى الكهف الذى ذكرته فى مستهل كلمتى عن الزاهدين ، وكان ملجأ للهاربين من الدنيا ، بل ديراً للتعبد والتوبة والتماس الصفح والمغفرة للسيئات والمعاصى إن كانت لهم زلات ولوائم ، يتجرعونها أو يتوهمونها ، ومن ذا الذى خلت حياته من هفوة أو كبوة ؟ ورب نظرة أو إشارة فيها عنت وخطيئة . . .

وما كانت تعاليم الإسلام السمحة تجيز هذه النزعة الهدامة فى التعطل والانزواء والرهبة الدائبة وإرهاق النفس رعباً وعسراً ، فإن رسوله العظيم مارس الدنيا وأقبل على المحبوب فيها وعدد الزوجات لا إرضاءً لنفسه وإنما اقتضت رسالته لبعض الأسباب المتعلقة بالدعوة ذلك التعدد ، وقال القرآن الكريم لا رهبانية فى الإسلام ، وهل كانت الرهبانية إلا مقت الزواج ، وقد جاءت الآيات البينات فى تصويرها للعذاب فى الآخرة من جراء الذين أفسدوا الدنيا ويفسدونها ببغيهم وعتوهم وكفرهم وبطرهم ، فإذا عاش

المرء فى دنياه مستقيماً نافعاً ما استحق عذاباً ولا عقاباً ، فعذاب الآخرة إذن نشأ من أجل الدنيا التى هى الأصل لمنفعة الإنسان وإصلاحه وسعادته ، لكن بعض المفسرين عكسوا الآية فهولوا ونفروا وجعلوا الدنيا تافهة ممقوتة ، وفاسدة دنيئة ، فعطلوها فى نظر الزهاد وشلوا حركتهم فيها ، ورابعة التى أحاط بها هذا المذهب وطوقها بفنونه التى وافقت هواها تأبت على الزواج وهو أحب أمر للمرأة ، فخالفت بذلك طبعها وفطرتها ، ودفنت فى صدرها وغورها الأمومة ، التى تنشدها كل أنثى ، ومن فعلت هذا من النساء ربما نسبت إلى الشذوذ لأن فى تأبى المرأة على ما خلقت له من إبقاء النوع وهى وسيلته إلى الوجود أمراً ينحرف عن قانون الخليقة والطبيعة ، ولا ارتأب فى أن هذه البادرة من رابعة العدوية وهى الذكية المتدينة التى كملت أنوثتها وصانتها من التبذل والتهور وأوتيت مسحة من الصباحة والإشراق — نزعة روحية — لاءمت مذهبها فى الزهادة ، ولقيت منها الاستجابة القريبة ، حتى تمكنت من نفسها ، وغورت مطالبها فى أعماقها ، لتحقق الغاية البعيدة فى حياتها الروحية ، وأحسب أن هذه المطالب قد حصرتها رابعة فى غور نفسها ووضعت عليها القفل ثم أضاعت مفتاحه ونسيت ما فيه . . .

ويبدو لى من خلال حديثها مع خليل الزهد رباح بن عمرو

القيسى حين رأته يقبل طفلاً من أهله ويضمه إليه فى رفق وحنان أن عاطفة الأمومة فيها قد غابت من وجودها ، إذ هالها أن ترى صاحبها الزاهد مثلها مكبًّا على تقبيل الطفل فقالت له :

– ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ، تبارك اسمه ! . . .

فلما سمع رباح تقريعها وأدرك ما تريد، أغمى عليه من فرط التأثر ، وحين أفاق من إغمائه جعل يمسح عرقه من على جبينه ، وهو يقول :

– رحمة منه تعالى بالإنسان ، ألقاها فى القلوب لتعطف على الأطفال . . .

أما رابعة فكانت تريد بزجرها الناسك ، الذى حدب على الصغير ولثمه لثمة حنو وإشفاق ، أن تذكره بحب الله الذى لا ينبغى لقلبه أن يشغل بسواه مهما كان ، فوجود أى حب يفيض من القلب ولا يتجه إلى الخالق وحده هو فى عرفها ورأيها تقصير فى حق الزهادة ، ومخالفة لأدب الناسكين ؛ ويتبين من ذلك أن أمومة رابعة قد جفت فصارت كالأرض المجدبة بعد أن كانت فى صباها ندية ريّا ، وذلك قبل أن تستغرق فى الزهد وتتعلق بحب لا تجد مثله فى الإنسان ، وروح الإسلام ينكر هذا الجفاء والإباء ، إذا ظهرا من الرجل فكيف إذا اصطنعتهما المرأة ،

لكن رابعة وهى ليست مثل غيرها من النساء فضلت أن تهب حياتها كلها لله لا للإنسان الذى لقيت منه منذ عرفت الدنيا الشقاء وقد حرمها الحرية التى طلبتها قبل المحبة ، فاتخذت من الزهد سبيلاً لقوام أمرها ، ومراد عقلها وانتقام ماضيها ، وقد أقامت فى نطاق هذا الزهد تكرس ليلها ونهارها لتحقيق تعاليمه مهما كانت قاسية ، فالإيمان به هو المصدر عند رابعة والإخلاص لمقتضاه زادها رسوخاً فيه ، حتى سيطر على مشاعرها وسخرها لغاياته المثالية ، فتغير فى نظرها وذوقها الحكم على الأشياء ، وكان منظارها يغشى عينيها بلونه القاتم ، فنظرت إلى الدنيا من خلاله بمسوح الرهبان ، والتاريخ لا يدلنا على أن رابعة قد نعمت بحياتها أو عرفت الحرير والوثير ، فقد كانت تتدثر بجبتها الصوفية الخشنة ، وتنام على حصير ، وهى فى مصلاها ، حتى بلغ من زهادتها فى اللبوس حيةً وميتةً أن وصت خادمتها عبدة أن تلفها فى هذه الجبة حين يتوفاها الله .

وإنى من وراء العصور المترادفة أنظر إلى هذه المرأة الخالدة الصالحة كيف برزت بزهدها فى معترك عصر متألق بالفتح والإقبال على الحضارة والمعرفة ، عصر كانت نساؤه متفتحات للحياة الجديدة ، مرحات مغتبطات بنعمى الحياة ومباهج الدنيا وزينتها ، أما رابعة فعزفت عن هذا كله وقد أتيح لها وعرض

عليها ، لكنها فضلت ما هو أبقى وأسمى فى اعتقادها ، فلم تمض فى تيار النساء اللواتى اجتذبتهن ألوان الحضارة ودواعى التطور الاجتماعى بل مطالب الطبيعة والجنس وليس هذا بضائرها ، فلكل امرئ وامرأة أن يعيش وفق إرادته ورغبته دون أن يسىء إلى غيره، ويتجاوز العرف والنظام، ونحن مع الأحكام الشرعية والاجتماعية لا نستطيع أن نتدخل فى حرية الإنسان نفسه إذا كان لا يسيئ إلى هذه الأحكام ، ورابعة ملكت وعياً وتجارب وإيماناً قل أن ملكت مثلها النساء ، فلم تعرف بتهور ولا رعونة ولا يعد غلوها فى الزهد عنتاً ولا مساءة وإن كان الزهد فى حد ذاته تجاوزاً للمألوف وشذوذاً عن المعهود ، لكن ما قد يجىء من شذوذ العقلاء هو على الغالب أسلم للحياة الإنسانية والاجتماعية من تحفظ المجانين .

عصر رابعة :

عاشت رابعة فى عصر إسلامى رائع ، كان من أقوى العصور التى مرت بتاريخ العرب ، ففى هذا العصر انبسطت لهم آفاق الدنيا ووافتهم أسباب الحضارة التى تلقاها العرب ممن جاورهم أو تمازج بهم ، وعاش عندهم من الفرس والهند والروم الذين دخلوا

فى الإسلام أفواجاً وأفراداً ، وأخذ المسلمون بلادهم فاتحين مبشرين بتعاليم الدين ، وقد توزعت المجد والعز فى هذا العصر أمصار وأرجاء فى العراق والشام ، منها البصرة التى ولدت فيها رابعة العدوية آخر القرن الأول للهجرة ، وامتدت حياتها إلى أعقاب القرن الثانى من سنة ٩٥ أو ٩٩ هـ حتى ١٨٠ أو ١٨٥ على التقريب الذى أجمعت عليه المصادر الكبرى والمظان التاريخية والصوفية ، فحق علينا إذن أن نلم بهذه البلدة الطيبة التى أنبتت رابعة وأطلعتها فذةً فى النساء ، رائدة للرجال فى مذهب روحى ابتدعته وسبقت إليه حقًّا وصدقاً لا عجزاً واحترافاً وتكلفا .

أما البصرة ، فقد بنيت فى خلافة عمر بن الخطاب على خليج فارس فكانت معبراً ومحطًّا للسفن والمراكب المتهادية من صوب بغداد والعجم ، والقوافل القادمة من جزيرة العرب ، وقد مصرت البصرة سنة ست عشرة هجرية قبل الكوفة بعام أو عامين وأقيم فيها مسجد كبير تعهده الأموى الحازم زياد بن أبيه بالعمران الإسلامى الجديد ، وكان يشتو فى البصرة ويمضى الصيف بالكوفة ، وقد نزلت البصرة قبائل وجماعات من بنى تميم وغيرهم من العرب ، وطابت لهم المعيشة فيها ووفد عليها كثير من البادية والحواضر ، أعجبوا بموقعها وألفوا سكانها ، وشاركوا فى بنائها .

وقالت المراجع الموثوق بها إن الذين استوطنوا البصرة من بنى

تميم كانوا يحبون الشعر والنقد ، ولا يرضيهم الجدل والتوهيم ، وقد أولعوا بالمنطق فى النحو ، ولم يستهوهم الشواذ فيه وشوارد اللغة كأهل الكوفة ، وكانوا على مذهب أهل السنة، جنح كثير من المتدينين إلى التقشف والتصوف اقتداء بشيوخهم الأعلام كالحسن البصري ومالك بن دينار وفضل الرقاشى وعبد الواحد بن زيد وصالح المرى .

ولما انتشر الإسلام رأى الفاتحون العرب أن البصرة تصلح لجعلها مدينة حربية فهى متوسطة بين الأقاليم المفتوحة ، ومعبر قريب من الهند وفارس وجزيرة العرب ، ولم تلبث البصرة أن اكتسبت لوناً جديداً غير اللون الذى أراده لها القادة والفاتحون ، فلقد غدت ملتقى للمقبلين عليها من قريب ومن بعيد ، وازدحمت فيها التجارة ، ودور العلم والدين ، وسكنها علماء ومحدثون ، تداولوا أصناف المعرفة والثقافة ، وانطلقت آراؤهم وأحاديثهم من القرآن والحديث وهما نبعة الحياة الفكرية الأولى فى الأمة العربية ، إذ نشأ من عناية المسلمين بقرآنهم وما احتوى من تعاليم الدين وأخبار الأمم وروعة البيان أن ألفوا كتبهم الأولى وعقدوا مجالس الدرس والتحصيل على ذلك الأساس كما كان من تلك العناية اندفاعهم فى جمع كلام العرب من شعر ونثر والنظر فيهما على هدى القرآن وتبيان أثره فى هذا الكلام .

ومن العلماء الذين أنبتتهم البصرة أو سكنوها ونزلوها معلمين ووعاظاً وفقهاء فى الدين واللغة ، فريق من ذوى الفكر والحكمة والمعرفة ، فنشأت فى البصرة عصر رابعة مدرسة كبرى ذات فروع عديدة فى الثقافة وأقبل على حلقات هذه المدرسة روادها من مختلف القبائل والشعوب التى دخلت فى الإسلام ، ثم كانت للبصرة وحدة فكرية قامت بأرجائها ومجالسها ، فعبرت هذه المدينة عن نزعة عقلية جديدة ومذهب عام فى الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقد تقسمت بلاد العرب فى هذا العهد وما بعده بقليل منازع عنصرية وسياسية فيما شابه ذلك ، فكانت البصرة على الغالب عثمانية الميل ، والكوفة علوية التشيع ، والشام أموية الهوى ، والخارجيون نزحوا إلى الجزيرة وطبعوها بطوابعهم ، وكانت هذه التيارات المتضاربة يصادم بعضها بعضاً فتؤثر فى الفكر والمجتمع ، بل كانت صورة للتحيز القومى والحزبى فى ذلك الحين بين سنية وشيعية وزبيرية ، يضاف إليها الخلاف بين الأمويين والخوارج حتى اعتركت هذه الأحزاب وضرب بعضها فى بعض وأعقبت من الخطر والفتنة ماملأ تاريخ العرب بكثير من الأهوال والفجائع ، فالبصرة وحدها فى نزعتها الموحدة اتخذت فى النحو نفسه واللغة ، مذهباً خاصًّا يخالف ما عند أهل الكوفة ، وقد تفرع لدى الباحثين آراء كثيرة فى النحو والإعراب جاءت ممن كانوا

فى البصرة أو سكنوا الكوفة .

ولما اشتد الخلاف فى تفسير التعاليم الدينية وانقسم المفسرون إلى ذوى قياس واقتباس ، واتباع أو سماع ، غلا المتشددون فيما ذهبوا إليه فى الشرح والتأويل وقد خيف على الدين أن تعبث به الأهواء والنحل ، فكانت الضرورة الاجتماعية تدعو إلى ظهور أمر يعدل ذلك الغلو فنشأ مذهب المرجئة الذى يرجىء المخالفة حتى تستقر الآراء على هدى وبصيرة وتمحيص ، ترد النفوس والعقول إلى الحكم الصحيح والهدف السديد .

وفى قلب ذلك التيار البصرى العنيف الذى كان يقف سداً أمام تيارات أخرى طلع رجل خطير ترك أثراً كبيراً فى الحياة العقلية والنفسية هو الحسن البصرى الذى جاهد طويلاً ما تسرب إلى المسلمين من آثار الفرس والهند ، مما أدخل الضيم على تعاليمهم وقد أخذت هذه الآثار تظهر من كواها ومكامنها مثل أفاع تخرج من أوكارها حين تأمن الخطر وتواتيها السوانح .

كانت هذه الآثار أوهاماً ومزاعم ، ظهر فيها أصحابها حين تطامنت لهم الحياة الإسلامية واندمجوا فى أهلها ، ولئن اندست هذه الأوهام والمزاعم فى بعض الأوساط والبيئات فقد ظهر معها ما ينفع فى الثقافة والفن والحضارة ، فليس من ينكر حكمة الهند وصناعة الصين ومعرفة فارس ، ولولاها جميعاً لما أتيح لحضارة العرب

أن تتمازج وتتطور ، ولم يكن فى مقدور أحد بعد الإسلام والفتح المبين أن يقف فى وجه التيار ، فقد أذاع الأعاجم مفاتن ، ما عرفها العرب من قبل سواء فى المعيشة أو اللهو والطرب .

وقد جمعت البصرة فى عصر رابعة ضروباً من الأجناس والثقافات والأهواء ، وكانت طوائف العلم والفقه تعيش فيها ، بين حلقاتها ومجالسها ، تلقاء طوائف أخرى عابثة مترفة ، ومن طبيعة المدن ذات الثقافة والحضارة أن تحتوى الأضداد ، فكان بالبصرة أغنياء بطرت معيشتهم وتناهى إليهم الجاه والنفوذ وإلى جانبهم فقراء يعيشون على الكفاف ويرمقون بالسخط تفاوت الطبقات ، مما أحدث النقمة والثورة حين طغى هذا التفاوت ، وقد عجت البصرة بأهلها والوافدين عليها حتى ضجت ، فكانت مزيجاً من الناس يوحد بينهم الدين ، لكن النعرات العربية التى كانت صارخة فى العصر الأموى غلبت على روح التساوى الذى جاء به الإسلام وهو القائل لا فضل لعربى على أعجمى أو أجنبى إلا بالتقوى ، وكان من الأعاجم والأجانب ذوو فضل وعلم وتقوى ، لكن الأمراء والكبراء وأولى الأمر من العرب كانت تعز عليهم المساواة ، وسياسة الدولة جائرة بينهم وبين هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام من الغرباء وبرزوا بالفكر والتحرر والمعرفة وفيهم الموالى فشق عليهم أن يستهان بهم وأن لا تسترد حقوقهم

المغصوبة ولا يلقوا من المعاملة العادلة المرجوة ما يقضى به الدين وقد تلمسوا مختلف الأسباب والوسائل لتحقيق مطالبهم وأمانيهم فلم يجدوا أفضل من العلم يسمو بهم ويرفع درجاتهم ، والعلم فى هذا العهد كان الفقه المستمد من آيات القرآن وأحاديث الرسول فيما يتعلق بأصول الحكم والمعاملة فى البيت والمجتمع ، والاجتهاد فى التفسير والإفتاء ، والرواية والتاريخ وغيره مما يتصل بسيرة الرسول عليه السلام وجهاده ومغازيه ، وقصص الأنبياء والمرسلين وحوادث الخلفاء الراشدين .

هذه نواحى العلم الذى كان معروفاً فى عصر رابعة مما برع فيه الموالى وجعلهم يتزعمون الحركة الفكرية أيام الأمويين ليخففوا من حدة العصبية العربية ويتقدموا الصفوف بالرأى والوعى والتقرب إلى الحكام ، ولئن دخل الإيمان قلوبهم وشاركوا فى خدمة الإسلام فإن نفوسهم المنغصة لم تخلص من شوائب الحقد والكيد ، وما سلمت أمورهم من تقاليدهم الموروثة التى سرى منها الكثير إلى تعاليم الدين حتى تأثرت بمذاهبه مما أدى إلى ازدياد الخلاف والتوتر ، وظهور الخرافات والتهاويل مصبوغة بصبغة إسلامية ، والإسلام برىء منها فإنها من بقايا الديانات القديمة كالبرهمية والصابئة ، كما كان التحيز فى السياسة والقبيلة والعنصر سبباً فى حدوث التكتل وإنشاء الفرق الدينية التى عبرت

عن نزعات غريبة ، وأفكار نابية سخيفة كالحلول والتناسخ والإمامة الموروثة وغيرها من البدع التى شارك الموالى بنفث سمومهم فيها تنفيساً عن أضغانهم ونيلاً ممن ازدراهم ولم يقدرهم قدرهم ، ولم يتخففوا من هذا الكيد إلا فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى أولى الموالى عنايته فتنسموا فى عهده روح الأمل والحرية وتشوفوا للمساواة التى نشدوها ، وقد لقى الخليفة من جرائهم نقمة ومقاومة وأخذ نفسه بالزهد والتقشف ليكون قدوة لمن أترفتهم النعمة وازدهتهم العصبية والحزبية ، فأطمأنوا إليه وعهد إلى الثقات من علمائهم بالقضاء والفتيا ، منهم يزيد بن حبيب مولى الأزد الذى جمع بين التفقه فى الدين ورواية الحديث ، وبين أنباء التاريخ فى الغزوات والملاحم ، وكان من أصل بربرى ، ولاه عمر بن عبد العزيز وظيفة الإفتاء بمصر وكان بارعاً فى مشكلات الحلال والحرام وقد توفى سنة ١٢٨ هـ .

ومن علماء الموالى المخلصين الذين اعتزت بهم مجالس العلم والدين الحسن البصرى الذى آسفه الاضطراب والفساد فى حياة المسلمين فرفع صوته بالحق ودعا إلى الإصلاح ثم انصرف إلى الزهد وبقى يؤدى رسالته ويحملها تلاميذه وأتباعه فى حياته حتى مات وهو إمام الزهاد .

وقد شهدت رابعة حلقات هؤلاء التابعين ، وحضرت

أذكارهم وشاركت فى ثقافتهم وازدادت معرفة ومراساً على طول الزمن ، حتى تقدمت أندادها فى هذا الزهد الذى وافق هواها ، وقد شهدت حوادث عصرها وعرفت أطواره وأشرفت على الحياة الفكرية والاجتماعية فى أيامها ، ولم يفتها أى شأن من شؤونه ، حتى انتهى أمرها إلى المذهب الروحى الذى ابتدعته لتتخلص فيه من الإنسان وتتجه إلى الله وحده ، لأن الإنسان لم يحقق أملها فقد عرفته مستعبداً وغابناً لا يكف عن تسخير الدنيا لنفسه فأحست الهدوء فى هذا الاتجاه .

ولو خرجنا من هذا العصر بمحصول مجمل لقلنا إن رابعة رافقت أروع ما كان فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى ، وهذه المرحلة من عمر التاريخ للحياة العربية الجديدة كانت حافلة بما أقام الملك وبنى العقول وحفظ القيم المادية والمعنوية ولو كان هذا العصر ، قد أوتى طبيعة هادئة واعتدالاً فى مناحى السياسة والحزبية لجمع بين عزة الفتح والعروبة ، ونصرة الفكر وصفاء المزاج ، لكنه بما كان عليه من عصبية واختلاف فى الرأى والمذاهب وتهافت على الحكم والمناصب حمل إلى ما بعده من العصور حتى أيامنا مواريث الحقد والتشيع والحزازات فكادت تكون هذه الأدواء مختصة بالشعوب العربية والإسلامية وكأن هذه الضغائن المتوارثة والمتأصلة وصايا من السلف إلى الخلف ، والدين الحنيف

براء منها ، ولن تعود هذه الشعوب إلى مجدها الأول إلا بالتخلص من هذه الأدواء بالمحبة والتصافى وإنشاء جيل جديد تسوده كلمة الله والوطن لنستطيع مؤتلفين متعاونين على رد الأعداء المتربصين بنا استعماراً وتعصباً ، وبذلك نحقق رسالة الدين .

مع الوالهين والوالهات :

اندمجت رابعة فى حلقات المتعبدين والمتهجدين ، وكان التهجد فى مفهومه الدينى يتناول السهر الطويل فى العبادة والمجاهدة فإذا فاتها فترات ، لعلة أو هجعة غلبتها على أمرها ، أحست نفسها تهب هبة واحدة ، لتردها إلى ما كانت فيه من تسبيح واستغفار ، والحقيقة أنها هامت فى التهجد واستغرقت ، لترضى قلبها ، وتؤدى ما وطدت روحها عليه أسوة بالصالحين الذين عرفتهم وعرفوها ، وقد ضاقوا مثلها بالدنيا وأسبابها ، فكان قيام الليل وصيام النهار من دأبهم تقرباً إلى الله والتماساً للعيش فى جو لا يتسرب إليه الشيطان ،

إذا ألم بامرئ أسى طارئ أو خطب جسيم سيطر عليه القلق والحزن ، فيتمنى لو أنه لم يخلق ، ويشعر إبان الغصة والحسرة أن الحزن سوّد الدنيا فى نظره ، وتكرّ أمام خاطره أحداث يندم عليها ، فكيف إذا كان الحزن مقيماً عليه لا يريم كالثكلى والمفجوع ؟

كان التضرع والوله والخشوع من شيم هؤلاء المتهجدين القانتين الذين وهبوا أنفسهم لله والآخرة ، ولطالما مضى الليل بهم وهم بين بكاء وابتهال حتى تقرحت أجفانهم وتصلبت جباههم من أثر السجود وقد عرفت طائفة منهم بالبكائين رويت عنهم الأحاديث ، وألفت من نوادرهم وأخبارهم الكتب ، وضمهم التاريخ إلى صفحات طوال ، تحدثت بمجالسهم وأذكارهم ، وما كان يدور بينهم من تدارس وتحاور ، فيما أخذوا به أنفسهم وآخذوا به غيرهم من إقبال على الدنيا وعرضها ، وكان مجلس رابعة لا يخلو من هؤلاء فقد أثروا فيها وتلقوا عنها ، وسألوها وأجابتهم بما أرضاهم أو أفحمهم ، إذا جادلوها أو حاولوا أن يغضوا من تشددها .

وكان أكثر من يحضر مطارحاتها وشاركها فى العبادة سفيان الثورى الذى أطلق عليها لقب المؤدبة ، فقال يوماً لإخوانه هلموا بنا نلم بصاحبتنا ، فإنى لا أستريح إذا فاتنى حديثها ، ولما دخلوا عليها مجلسها رفع سفيان يده داعياً :

— اللهم إنى أسألك السلامة . . .

فابتدرته رابعة بالبكاء وسألها :

— ما يبكيك يا رابعة ؟

فأجابته وهى تعرض به :

ـ أنت السبب ، لقد عرضتنى للبكاء ، أما علمت أن السلامة ترك ما فى الدنيا وأنت منغمس فيها .

والظاهر أن سفيان لم يعط نفسه كلها للعبادة مثل رابعة ، بل ترك للدنيا نزراً يسيراً يتحدث فيه إلى الناس بالموعظة والذكرى فعدته رابعة راغباً فى الدنيا ، وهى تريده منصرفاً إلى الله وحده والدار الآخرة . . .

وقد حدث سفيان الثورى عن نفسه قائلاً :

ـ كنت عند رابعة ذات ليلة ، فصلينا معاً حتى مطلع الفجر ، وفى الصباح ، قالت :

ـ علينا أن نصوم اليوم شكراً لله على هذه الصلوات الطوال التى أقمناها الليلة .

وروى أحد الزهاد أنه مضى مع رابعة فى ذكر الله والتسبيح له ثم أخذا يجولان فيما آتاهما الله من معرفة وفهم لأمور الدين فأطالا الحديث والمدارسة والتعمق فى أسرار الوجود حتى نسى الزاهد المتصوف أنه رجل وأنها امرأة ، فلما انتهيا من الكلام واستجلاء المرام أحس هو أنه لم يكن إلا فقيراً وأنها كانت غنية بالمعرفة والإخلاص .

ولعل هذا الزاهد المتبصر قد كشف عما فى نفسه ، وما فى نفس رابعة فوجد البون بينهما بعيداً ، إذ بدت له فى عقل رجل

رصين لا يتعاظمه التفكير ولا الحديث فى أدق المسائل الروحية ، مما يتطلب وعياً قوياً ، وبصيرة نافذة وحكماً سليماً .

وقال سفيان يوماً فى مجلس رابعة ، وهو يشارك فى ذم الدنيا :

— واحزناه !

ولم تدعه رابعة يكمل كلامه فقالت له :

— لا تكذب ، قل واقلة حزناه ؛ لو كنت محزوناً ما هنأك عيش . . .

فهى تريد من أصحابها ولهم أن يدعوا الدنيا ولا يعبأوا بغير ذكر الله والتفكير فيما ينتظرهم بالآخرة ، إن ذكر القيامة والحساب كان يدخل الرعب على قلبها ، فتزداد تضرعاً إلى الله وتوسلاً بأن ينجيها من العذاب .

وكلما سمعت الأذان للصلاة ذكرت منادى الآخرة ، وإذا هب الجراد تصورت الحشر وإذا لمحت الثلج ذكرت صحف القيامة ، كل هذا وأمثاله هواجس نفسية يصفها علماء النفس عند كلامهم على بعض المرضى بنفوسهم ، فمن هؤلاء من إذا رأى خطوطاً فى الثلج هاجت فى نفسه عوامل العقد المنسية أو المنطوية فى أعماقه ، ومن إذا رأى شيئاً يمس ذكرى من ذكرياته الدفينة أو المطوية عصف فى باطنه هياج جديد .

وقد يدرك الوجد والوله هؤلاء الخائفين من عذاب القيامة

فيهتاجون ويجأرون بالدعاء والبكاء ، والإلحاح فى التماس التوبة متفانين فى الاستغفار ، لتطمئن قلوبهم ويخلصوا مما يحسون حقيقة أو توهماً وقد سأل أحدهم رابعة :

ـ إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب الله علىّ ؟

فأجابت رابعة :

ـ لا ، بل لو تاب عليك لتبت . . .

كانت رابعة ترى أن الإنسان لا يستطيع أن يحظى بالتوبة إذا استغفر لذنبه فحسب ، بل عليه أن يجاهد نفسه ، ليظفر برضى الله ، بعد أن يتجرد من الخطايا ، تجرداً تامًّا عامًّا ، فالاستغفار وحده دون الانسلاخ من أسباب المؤاخذة والمعصية لا يكون صادقاً ما لم يقترن بالعمل والإنجاز ، وسلوك سليم يؤكد العزم والمراس ، وقد دار على لسان رابعة كثير من التعبير الرمزى الذى يحتاج إلى النظر والتعليل مثل قولها :

استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه » أو قولها : « أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله . . . »

وهذا التشدد فى الاستغفار والتعنت فى التماس التوبة دليل واضح على صدق العقيدة والإيمان الجازم ، بالبعث والنشور ،

والحساب والعقاب ، وبرهان آخر على أن نفوس هؤلاء الواهين الزاهدين كانت شفافة متهافتة لم تصمد للحياة ولم تقوعلى احتمال المشكلات وحلها فى الدنيا ، وهى يومية دائبة ، ولم يكن الدين يوماً ليحول بين المرء وحياته العادية الطبيعية ، ويمكن أن أسمى هؤلاء فى تعبير عصرنا بالمختصين بالعبادة دون غيرها ، لانها تتطلب المعيشة والحياة التى أرادتها تعاليم الإسلام ، ودعا إليها رسوله الكريم .

أما التوبة فى حد ذاتها ومفهومها ، فهى ندامة متضخمة تسد أفق صاحبها ويعبر عنها علماء النفس والروحانيون بصوت داخلى يحض على محو ما جنت الأيدى ظلماً وإثماً بالصلاح والتقوى والحسنات ، وهذا الصوت هو ما نعبر عنه اليوم بكلمة الضمير ، فالتوبة تواجد نفسى نبيل يدل على إمكان الارتداد إلى الخير بعد الشر ، والإحسان بعد الإساءة ، ومهما غلا الجارم الأثيم بالتجلد والتمرس فلا بد له من رجعة إلى الندم ، والحصول على التوبة من الإله وقانون الإنسان .

ورابعة الزاهدة المتهجدة ، أطالت التضرع إلى الله بأن يقبل توبتها ، ولعلى أتساءل ماذا جنيت يا رابعة حتى ألححت بمثل هذه التوبة ؟

إننى لا أجد الإجابة على تساؤلى إلا بالتخمين والظنون ، وتأويل الحوادث التى مرت بها رابعة وتحميلها على صمتها البليغ ، الكلام فيما يجوز أو لا يجوز ، ويصح أو لا يصح ، ورابعة اليوم من وراء الغيب والدنيا لا تملك الكلام ، وما أوتيت الغيبة والشطحات الصوفية لأراها فى هذه الأدوات الروحية الغامضة ، فإن أيامنا التى نعمت بالتليفزيون والرادار ما تزال عاجزة عن رد ما فاتنا وما لم يصل إلينا على حقيقته .

ولئن جاءت أكثر حوادث رابعة مع إخوانها الزهاد ، فإن لها مع صواحبها الوالهات المتعبدات ، حوادث عديدة عجيبة ، وكن كثيرات متبصرات ، سرن فى مذهب الزهد ، وأخذن بهذه النزعة النفسية ، وكانت البصرة زمن هؤلاء تجمع ألواناً من النساء فيهن الفقيهات والمحدثات ، والمأخوذات بالسياسة والعصبية ، والمشاركات فى الحياة الفكرية ، وفيهن المغنيات والطنبوريات والماجنات العابثات .

أما اللواتى سلكن طريق رابعة فلم يكن قليلات مهملات ، لكنهن لم يحتملن صبرها ، ولا أوتين مثل بصيرتها وما تعمقن العبادة وغلون فى المجاهدة كما فعلت رابعة ، بل ما وسعت عقولهن سبيل الاتصال بالله والاستغراق فى أسرار الحق ، فأعوزهن التماسك وظهر على أكثرهن الشذوذ والانحراف ، وقد

عدهن بعض الرجال والنساء فى طائفة الملموسين حتى إن أبا القاسم النيسابورى الذى توفى فى أول القرن الخامس للهجرة ألف كتاباً فى عقلاء المجانين » ذكر فيه فريقاً من هؤلاء الزاهدات السابقات اللاتى أصابهن الوله والهوس من جراء التعمق فى العبادة والانقطاع عن الدنيا ، منهن حيونة التى كانت صديقة لرابعة وقد زارتها يوماً وباتت عندها ، فلما مضى هزيع من الليل أخذ الكرى بجفون رابعة وأغمضت عينيها إذ غلبها النوم ، فهبت حيونة نحوها وكانتا تتهجدان معاً فركلتها برجلها وأيقظتها زاجرة قائلة :

ـ قومى يا رابعة ، قد جاء عرس المهتدين ، يا من زين عرائس الليل بنور التهجد !

وقد ذكر النيسابورى خبر هذه المتعبدة صديقة رابعة وزميلتها فقال : إن حيونة وقفت يوماً بعبد الواحد بن زيد الذى خطب رابعة وكان من الوالهين الزاهدين نادته متهكمة :

ـ يا متكلم ، تكلم عن نفسك ، والله لو مت ما تبعت جنازتك . . .

فسألها :

ـ ولماذا يا حيونة ؟

فأجابت :

– إنك كثير الكلام على الخليقة وتتقرب إليهم ، ما شبهتك إلا بمعلم صبى ، علم أن يحفظ بالعشى ، فإذا بكر فى بيت أمه نسى ما حفظ ، حتى يحتاج المعلم إلى ضربه ، اذهب يا عبد الواحد . . . اضرب نفسك بدرة الأدب وتزود زاد القناعة واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك ثم تكلم على الخليقة . . .

فلما سمع عبد الواحد كلام حيونة تعرق جبينه خجلاً ومضى فى طريقه صامتاً ، وقد أقام عاماً لا يتحدث إلى الناس . . .

ويظهر أن حيونة هذه على شاكلة رابعة فى التهكم بمن لم يجارهما فى العبادة والتجافى عن الخليقة تقرباً إلى الله وحده ، وقد نسيتا أن الله يأمر بالعمل والسعى إلى الخير العام ، وفى الإسلام نظام المعاملة والمبادلة فى الحياة الدنيا ، ولم يدع إلى الانطواء والانزواء ابتغاء الآخرة فحسب كما حسب الزهاد .

ومثل حيونة كثيرات ، كان لهن شعر فى الوعظ والتأديب ، وكلمات صوفية رمزية ، تصور المذهب الذى نأى بهن عن الحياة الاجتماعية ، وقد ذكرهن النيسابورى فى « عقلاء المجانين » .

أما رابعة ، فقد نجاها الله من زيغ العقل فثبتت ثبات الرجال الأقرام ، وكانت حجة النساء فيما آتى الله بعضهن مثلما يؤتى الرجال من علم ورجاحة وإيمان وتقوى ، حتى عدها الشيخ

فريد الدين العطار إمام التصوف الفارسى موازيةً لكبار العارفين فى عصرها ومما قال عنها : إذا كنا أخذنا عن عائشة أم المؤمنين نصف الدين فلا بدع إذا تلقينا عن رابعة العدوية وهى التى جاءت بعدها ولم تكن عالمة فى الحديث والفقه مثلها — الموعظة البالغة والمجاهدة الخالصة والمعرفة الثاقبة ، فهى أحدوثة للناس إذ ظهر منها ما عجز دونه الرجال وسبقت إليه ، فكان مذهباً عجيباً فى الحياة الروحية أقامته على قواعد المعرفة حسب مصطلح التصوف فى عصرها عن العارفين ، وطبقة العارفين هؤلاء ، درجة علمية صوفية ، لا يرقى إليها إلا من أوتى البصيرة النافذة والصفاء الروحى والصدق فى الدين ، وكل هذه الصفات توافرت فى رابعة وجعلتها من أصحاب هذه الدرجة ، إن لم تكن ابتدعتها وسبقت إليها . فالمعرفة الإلهية لا بد لها من قلب زكى سليم من الزيغ وتفتح للعلم لتلقى الكشف الحى وتلمس الحقائق الشفافة التى لا تخضع للمس المادى والرؤية العينية .

رابعة تحج بيت الله :

لقد كتب على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، فصار أمنية المتمنى من المسلمين وأمل الزهاد والمتهجدين ، كانوا قبل عصرنا الذى قرب المسافات بالباخرة والطائرة يقطعون الصحراء على ظهور الإبل فى سفرة طوياة ثقيلة ، وما يزال حتى اليوم فريق من هؤلاء وغيرهم يفضلون السفر إلى الحج بوسائل الأقدمين ، فما يكاد يدنو موسم الحج من كل عام حتى ينبعث حنين التائقين إليه والتائقات ، وتلهج ألسنتهم بالدعاء إلى الله أن يكون لهم منه نصيب ، على أن الشعور الذى يخامر كل من وطد العزم على هذه الزيارة يجمل وصفه حين يتهلل وجهه بالغبطة والبهجة أو حين يلوح له وجه الكعبة ويهبط منزل الوحى ويرى الأرض التى أطلعت محمداً عليه السلام، وكانت مبعثاً لمجد العرب وعزة الإسلام ، على ترادف العصور والأجيال .

كان الإقبال على الحج أمراً مألوفاً منذ صار فرضاً على من يطيقه من المسلمين ، ولم يكن يحسب أى حساب للمشقة التى يتكبدها الحجيج فى طريقهم ، وفيما يعانون من قسوة الطبيعة فى الصيف والشتاء ومن حيرة الظمآن ولفحة الشمس وفقدان الأمن

على مسرى الحجاج ، وضربهم فى الصحراء يحدوهم الحنين إلى بيت الله.

وكانت السنون تتعاقب ، وهى تنظر إلى الحاج كذاهب مفقود، فإذا عاد كان غنيمة مردودة، ويغلو أهله وذووه بالفرحة فى لقائه وعودته ، لأنه رجع إليهم كاسباً بركة الحج وسلامة الأوبة ، وكان القول المأثور ، « الثواب على قدر المشقة » عزاء الحجيج فى تلك المتاعب العديدة .

هذا حكمنا على سواد الناس فى ذلك الزمن القديم ، فكيف يكون الحكم والتصور إذا هما انسكبا على الزاهدين الوالهين ، وعلى التائقين المتلهفين ، حتى صار إلى رابعة العدوية وهى فى طليعة المتعبدات القانتات ؟

روت أخبار هؤلاء فيما روت تهاويل عما اتفق لهم فى حجهم وما أبدوا من احتمال المكروه وشق الطريق ضرباً فى البيداء ، ورغبة فى الوصول إلى الكعبة ومنزل الوحى ، لقد رووا حوادث وأشياء يصعب تصديقها فى زماننا لندرة وقوعها وقلة الإيمان بها ، لكننا أدركنا أناساً عرفوا من الرجال المتدينين من حجوا مشياً على الأقدام ، وتعرضوا وهم يخدمون غيرهم للهلاك التماساً لثواب ارتجوه من عند الله، ومنهم من لم يقطع موسم الحج حتى مات ، وشارك بعض النساء الرجال فى المثابرة على الحج وإن لم يشاركنهم فى المشقة، وكانوا قبل أيامنا يتعرضون للسلب والردى فى الطريق ،

فلا غرو إذا كان الحجيج فى تلك العصور البعيدة ، قد عانوا الأهوال ، وتمرسوا بالشداد وكان منهم من يموت فى إبان ذلك عدّه القوم شهيداً .

وفى ظلال هذا التصور والحكم من بعيد، رأينا الزهاد الوالهين فى زمن رابعة أكثر المسلمين إقبالاً على الحج ، واحتمالاً لمتاعبه حتى افتن بعضهم الأفانين فى العبادة التى تناط بالحج فكانوا يقطعون المسافة بين البصرة ومكة فى سنين متطاولة، غير عابئين بالخطر والقطيعة والمرض .

وقد عدَّدَتْ رابعة شيخة الزهاد سفراتها إلى أرض الكعبة ومنزل الوحى ، فأدت فريضة الحج على شوق ولهفة ، وحققت أمانيها فيه وكانت ترتحل مع القافلة فى الصحراء ، لا تبالى تعباً ولا خطراً ، بل كانت تهزج وتناجى ربها والركب سادر فوق الرمال فتقول :

— إلهى وعدت بجزاءين لأمرين : القيام بالحج والصبر على الشدائد ، فإن لم يكن حجى صحيحاً مقبولاً عندك ، فيا ويلتاه أو ما أشد هذه المصيبة عندى !

وهذا الدعاء يشف عن نفس رابعة فى هذا الأوان الذى حجت فيه ولم يثبت التاريخ الزمن الذى بدأت تحج فيه ، وأغلب الظن أن هذا الدعاء يدل على أنها قالته أول عهدها

بالحج ، فقد التمست فيه من الله أن يتقبل حجها وإن لم يتقبل فواضيعة جهدها ، لكن رابعة وقد هامت فى العبادة ورضيت بها عزوفاً عن الدنيا وأهلها صار الحج عندها وسيلة من وسائل القربى إلى الله لا لتحظى بالثواب ، بل إلحاحاً فى معرفة الحق واستغراقاً فى سر الوجود ، فقد تقدمت فى معرفتها وعبادتها أشواطاً حتى دخلت فى نطاق جوى لم ينقلها إليه جناحان ، وإنما استهواها تواجد خالص ، وتعمق لمعانى الذات الإلهية ، فأطالت التأمل واصطنعت التعبير الرمزى فى حديثها ودعائها ، وفى سلوك مذهبها مما اصطلح عليه فريق من إخوانها الزاهدين .

وهذه الدرجة ينبغى أن تكون رابعة قد بلغتها بعد منتصف حياتها ونضج معرفتها ، وتفتح بصيرتها ، وكان من الطبيعى فى سلوكها الدينى أن تدرك ذلك ، فلو أنها تتلمذت على من تقدمها سناً وعاش معها من الأولياء والصالحين لآن لها أن تصل إلى ما وصل إليه أترابها وأساتيذها ، على أن الوصول إلى المقامات الصوفية والكرامات الروحية ، ليس رهيناً بوقت محدد ، بين أستاذ وتلميذ ، وربما بلغ المريد أو التلميذ فى شطحة واحدة أو استغراقة فى العبادة والمجاهدة ، ما لم يبلغه سابق إليهما بشطحات ، ويبدو أن حج رابعة فى المرحلة الثانية من عمرها الطويل كان صوفياً لذات الله ، لا للثواب وخشية العقاب والرغبة المحضة فى البيت

الحرام .

وقد نسبت إلى العدوية فى هذا العهد حوادث وحكايات أشبه بالأساطير ، فقد روت أكثر المصادر التاريخية أموراً تجلت فيها كرامات رابعة ، وروعة مناماتها ، منها أنها لما غدت إلى الحج فى القافلة كان معها حمار يحمل متاعها ، وفى أثناء الطريق نفق الحمار ، فتوقفت رابعة وأبت أن ترافق القافلة ، فقالت لأصحابها :

ــ ارحلوا وحدكم ، ما كان اتكالى عليكم لما ارتحلت بل ثقتى بالله وحده . . .

وجلست رابعة قرب حمارها تدعو ربها وترجو منه الرحمة قائلة

ــ إلهى ، لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك ، ولقد نفق حمارى فى الطريق وأنا بالفيافى وحيدة . . .

وما كادت تتم دعاءها ــ على رواية العطار ــ حتى ارتدت الحياة إلى الحمار فألقت رابعة على ظهره متاعها ، وانطلقت فى الصحراء تريد اللحاق بالقافلة السابقة .

وفى رواية هى أقرب إلى الأسطورة والحكاية ، نقلها أبو على الفارمذى تلميذ القشيرى أبى القاسم وأستاذ الغزالى أبى حامد ، أن رابعة مضت فى الصحراء تريد الحج وبقيت سبعة أعوام ، تتقلب على أضالعها ، حتى بلغت الكعبة ، ولعل الرواة نقلوا هذه

الحكايات المتواترة ليدلوا على افتنان الزهاد بأصناف العبادة وفيها إيلام الجسم وإرهاق النفس عسراً وكبتاً ، وقد أضاف العطار صاحب « تذكرة الأولياء » حكاية ثانية إلى كرامات رابعة وهى أن الكعبة التى تقام حولها مراسيم الحج قد ذهبت بنفسها إلى لقاء رابعة ، ونحن لا نجادل فى هذه الحكاية المروية على خطأ فى تأويلها ، كما نسبت إلى رابعة فى تحول زهدها وبراعتها فى الكلام مقولات ذات تبعات وخطر ، إن أخذت بظاهر المعنى ، ولكم حمل علماء قبل رابعة وبعدها أقوال على محمل الظاهر فأوردهم الشبهات وجرّ عليهم الويل والنقم ، أما رابعة فقد أصبحت فى تصور الحج ، وتطور معناه فى قلبها ، وإحساسها تنشد فيه بعد المقصد المادى ، وجه الله وحده ، فهو وسيلة من وسائل العبادة ، وهى تريد المعبود ، ولم تبق فى نفسها حاجة إلى هذه الوسيلة بعد صوفيتها الطويلة ، ومجاهدتها الخالصة للتجرد من المادة والتعلق بما هو أسمى وأبقى ، فشفوف روحها بهذا الحنين وانعتاقها من كل غاية بشرية ، جعلها لا تتوسل بكعبة ، ولا تعبأ بموسم خاص ، فانتهى حجها من خلال كلماتها الأخيرة عنه ، إلى رمز مطلق ، يمكن نشدانه فى أى زمان ومكان ، لأن الله ليس بمحدد فيهما ، وها هنا جرأة من رابعة فى رأيها وغوص منها إلى أعماق فكرية تجردية لم تصل إليها من قبل ، ولعل

الاجتهاد وطول التبتل والاستغراق فى معرفة الله أديا بها إلى ذلك التطور ، فى ممارسة العبادة على المذهب الذى ارتضته ، ووجدته محققاً لاعتقادها ، فى تجريد المجاهدة الروحية من أية وسيلة مادية ، أو أداة مصنوعة . فالتعبد بأشياء لزمها الحس واصطنعتها الجوارح اللامسة هو من بقايا الوثنية التى قامت بالصنم المحسوس ، المحدد بالحيّز ، والذى يأباه المذهب الصافى المجرد من القيود .

وتاريخ الفكر العربى سواء فى الدين أو الفلسفة ، قد احتوى حوادث عديدة وأخباراً موزعة لأناس من العلماء والمفكرين وأهل الجدل ، لحقتهم المؤاخذة والتهمة بكثير من أقوالهم وأفعالهم ، لأنها فهمت على ظاهرها فهماً خاطئاً ، فالقول المتواتر عن رابعة ، فى تطور حياتها الروحية ، حين دنا موسم الحج : « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ إنها الصنم المعبود فى الأرض ما وجه الله ولا خلا منه » ربما كان منحولاً أو مدسوساً عليها بالرغم من التواتر ، إذ أن التواتر نفسه تسرب إلى حديث الرسول عليه السلام ، بآلاف من الأحاديث الموضوعة والمنحولة ، على أن المفهوم من هذا القول إن صحت نسبته لرابعة أنها تريد وجه الله وحده بقلبها وبصيرتها ، وما يتجلى لها فى عبادتها وهو محض المراد من صوفيتها ، وتجافيها عن الدنيا ، فإيمانها الخالص العميق وتطور المعانى الإلهية فى تفكيرها وتعبيرها ، جعلا

نظرتها تترامى على إشراق روحى متكشف ، ولم يبق همها مقصوراً على حج البيت ، والأرض التى باركها الله بالوحى والتنزيل أسوة بأندادها الزهاد .

لقد صارت رابعة فى حجاتها الأخيرة ، إلى تجرد لا يحتويه كيف ، ولا يشتمل عليه حدود ، أو تحيط به قيود ، فتطرقت فى حديثها عن الحج مع الزهاد والعارفين إلى إيراد ألفاظ فهموا عنها مقاصدها ، وفهمت عنهم مراميهم ، لكن الذين جاؤا بعدها من العلماء والمفسرين ، راحوا يتعنتون فى تأويل أقوالها ، ومنهم ابن تيمية الذى تجنى عليها ونال من ظاهر قولها .

ولا ندرى على الضبط بدء انقطاع رابعة عن الحج فى المرحلة الأخيرة من عمرها ، فهل حال بينها وبينه شيخوخة ضعيفة لا تقوى على السفر ؟ أو أن تطور الفكر فيها ، وتحولها من زاهدة إلى متصوفة ، جعلها تستغنى بالمدرك عن المحسوس وبالهيولى عن الملموس ، فإن هيامها فى الملأ الأعلى واستغراقها فيما وراء الكون وتبحرها فى المعرفة الإلهية قد تجلى فى هذا الأوان بسلوكها الصوفى وتعبيرها الرمزى ، وفيض روحها بتسابيح علوية ونفحات قدسية ،وليت شعرى أكانت رابعة فى أطوارها هذه ، مثل فراشة تاقت إلى الاحتراق ؟ ولسوف نرى كيف هدهد التصوف رابعة ورنح عطفيها ، فمضت نحو كنز المعرفة كنشوان غاب عن

عينيه ما يرى الناس ولاحت له صور ومرئيات ، فى عالم إشعاعى لا تحده الفنون ، ولا تدركه الجسوم ، إنه عالم ما وراء الأعين والأفكار مهما يشد الإنسان عزيمة تحليقه يجد جناحيه مهيضين دون ذلك المطاف البعيد ، وكم من أسير فى القيد وراء قضبان ليله الطويل ونهاره المرير يتوق لبصيص من النور الذى يشعره بنعمة الحرية ويرده إلى الأمل .

كذلك أهل الفكر والتأمل الذين يسبحون وراء الواقع ليعرفوا حقائق الوجود ولو من بعيد ، فيعودون أدراجهم قانعين بلذة البحث والاستغراق أو طامعين بالمزيد .

من زاهدة إلى متصوفة :

يروقنى فى الدراسة الأدبية والاجتماعية أن أتتبع سير التطور فى قضايا الفكر أو فى اتجاه أصحابها ؛ وما استعصى على طوابع التطور شىء ، فإن قانونه الخفى يسرى على الأحياء والأشياء ، من حيث لا تدرى ، وهو ذو سير سرّى لا تراه العيون فى نموه وتدرجه ، وإنما يرى فى ملامحه ومراحله ، إنه يمشى كنمو الزهرة ، فما من عين فى الحياة ولا فى مناظير العلم قوة لرصد هذا النمو فى الزهرة وتفتح براعمها ، ورب شجرة زرعناها فى الحديقة من عرق صغير ، فنعجب لانبثاقها ونموها ، من غير أن نشعر بتدرجها .

ورابعة التى عرفناها عرقاً طريًّا ثم غصناً نامياً غدت بعد سنين شجرة كبيرة ذات ظل وثمر ، أما ظلها فقد استراح إليه متعبون من هاجرة الدنيا التى لفحت بشمسها المحرقة ، وأما ثمرها فلم يستطع أن يتذوق طعمه إلا العارفون ، ودرجة المعرفة هذه لا يحظى بها إلا أهل التجلى والبصائر .

فالتطور الحسى والمعنوى الذى مشى بزهادة رابعة وعبادتها تحول بعد حين إلى تشوف لهيف ، ومعرفة ببواطن الأمور ، وانجذاب إلى ما فوق التحديد ، وتجرد من كل هدف ، فلم تبق فى تهجدها كغيرها من المتهجدين ، تعبد الله طمعاً فى جنته أو فزعاً من ناره ، وتبيت والهة باكية ، إشفاقاً من يوم الحساب شأن الذين أمضهم الخوف مما سوف يلقونه فى الحشر حسباناً . وإنما مضت رابعة فى حياتها الدينية ، إلى برزخ جديد ، هو الوحيد المرصود لأهل المجاهدة والتقوى ، ممن شرح الله صدورهم وآتاهم الكرامة والمعرفة .

إن درجة العليين تشبه إلى حد قريب الدرجات العلمية فى الجامعات المعاصرة ، وأعلى مراتب العلم هى التى يقف فيها العالم وكأنه اقترب من الحقيقة أو مارسها وصار الواقع بين يديه مثل مغنم وصل إليه ، بعد مجهود طويل .

والتصوف هو هذه الدرجة العليا التى تحولت إليها رابعة عن

بصيرة ومراس وعرفان ، فما هو هذا التصوف الذى فضلته رابعة وأقبلت عليه بعد زهادة طويلة ومجاهدة مرهقة ، حتى روضت نفسها عليه وأخذتها به إيماناً ويقيناً ؟

إذا قصدنا معانى التصوف وتعريفه لغة واشتقاقاً ، قلنا إن وجوهاً متضاربة أو متقاربة تتلاقى فيهما ، ويمكن إيجازها فى رأيين ، الأول أن بعض الزاهدين المتعبدين سماهم القوم أو سموا أنفسهم متصوفين ، إما لاتخاذهم الصوف لباساً لخشونته وجرياً مع التقشف الذى ألفته نفوسهم الزاهدة وليتميزوا ممن كانوا يرتدون الثياب الفاخرة ، كما رأى ابن خلدون فى هذا الموضوع وفى تاريخ هذا اللبوس صلة بمسوح الرهبان والمتعبدين الأوائل ، وكان العرب إذا دهتهم الفجائع لبسوا الصوف الأسود الخشن ، كما فعلت الخنساء فى فجيعتها حداداً على بنيها وأخيها ، وأما الرأى الثانى فينسب فيه التصوف إلى الصفاء لما فى أهله من صفاء البصيرة ، أو الصُّفة وهى مكان كان يأوى إليه بعض الفقراء من المسلمين خارج المسجد ، أو الصف لأن الصوفى فى الصفوف الأولى ، معدود من أولياء الله الذين تطهرت قلوبهم وتحررت نفوسهم من الشهوات والنزوات ، وهذه النسبة فى الاشتقاق لاتجيزها لغة العرب ولا تنطبق على كلمة صوفى ولو جئنا بالتقديم والتأخير فى الحروف .

والتعريف المذهبي للتصوف متعدد فى التعبير عن أصوله وفصوله ، والإعراب عن معناه ومرماه ، فكل من كان صوفياً وصف المسلك فيه حسب مزاجه ومفهومه ، وكل من بحث فى التصوف أو ألف فيه وصنف ، ذكر ما كان يعن على خاطره من ذلك ، ومن طريف ما ورد فى أمهات كتب التصوف من هذا التعبير فى التعريف ما أورده الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » وقد توفى سنة ٣٤٠هـ .

كان هذا المؤلف يعدد تعريف التصوف بأوجه شتى ، ويصطنع لمعانيه عناوين جامعة متمشية مع لغة عصره فى السجع والجناس مثل قوله : « إن التصوف هو المفر من البينونة إلى مقر الكينونة » وقوله أيضاً : « التصوف هو الانفراد بالحق عن ملابسة الخلق » .

ومثل الأصبهانى أبو سليمان الدارانى فى التعريف بالصوفية والتصوف وقد توفى عام ٢١٥ هـ ، فمن قوله : التصوف أن تجرى على الصوفى أعمال لا يعلمها إلا الحق ، وأن يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو » .

وهنالك كثير من التعريف بهذا المذهب الروحى بلغ المئات وملأ الصفحات ، وتعددت فيه المعانى والألفاظ ، وكله أو جله يدور حول علاقة المخلوق بالخالق فى العبادة المثلى ، والمجاهدة

النفسية ، كما تتمشى هذه المعانى أو العناوين مع المقاصد الفلسفية للتصوف نفسه ، فقد تطور وتجدد ، وبخاصة بعد شيوع الفلسفة فى العصر العباسى ، إذ فلسف العلماء والحكماء فكرة التصوف ، وقرنوا أعمال الصوفيين وأقوالهم بالحكمة وما وراء الطبيعة والغيبيات .

على أن المتتبع لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، يجد أن الصوفية قد مازجتها هذه الفلسفة ، كما تسربت إليها موضوعات جديدة تمسها ، فتصوف رابعة إذن قد جاءها من تطور الزهد فيها ، والسلوك الدينى فى حياتها إذ كانت كغيرها من الزاهدين ، تعبد الله فى أول أمرها خوف العقاب والتماساً للثواب ، وهذا هدف الزهد ، أما حين تصوفت وتوغلت فى العبادة فقد تصفت روحها من أكدار الدنيا وتحرر فكرها من مخاوف الآخرة ، كما أن هذه العبادة الخالصة قد قرنتها رابعة بالتأمل الطويل والتفكير البعيد فى ذات الله وأسرار الكون فأدى بها إلى الانطلاق الروحى وراء الغيب والهيام فى الملكوت الإلهى ، وشغلها هذا الانطلاق والتعمق فى التصور والتأمل عن كل شىء فى الوجود ، وصارت تعابيرها صوفية ترمز إلى ما تريد ، لا بالقول الظاهر ، وإنما بالمعنى الباطن وما وراء الألفاظ .

ولقد مارست رابعة هذا اللون من التصوف فى إبان مطلعه ،

فكانت من أوائل المتصوفين العارفين ، وعدت لصدق تصوفها فى جملة الأولياء والصالحين الذين ارتقت بهم البصائر إلى الحقائق وللحقائق عندهم درجات وفى أعاليها التجلى والكرامات .

وتاريخ رابعة الذى لم يكتب له أن يدرس ويبحث على ضوء التحليل النفسى وفى منهاج علمى ، يدلنا بالرغم مما فى صفحاته الموزعة والمقتطعة من تناقض وغموض ، على أنها تدرجت فى سلوكها الدينى من الزهد إلى التصوف وهو التدرج الطبيعى للمخلصين الموهوبين فى عبادتهم من هذا الرعيل ، فكانت رابعة بفطرتها ومزاياها نزاعة إلى هذا الضرب من العبادة الجديدة وهى التصوف دون أن تعلم المرامى العلمية أو تدرك التطور الفكرى فى أحكام الدين ، وأغلب الظن أنها تحولت إلى التصوف بعد اندماجها فى حلقات الذكر التى كانت تقام فى أيامها بالبصرة لممارسة التسابيح والابتهال بشكل جماعى مؤلف من المتهجدين والواهين ، فكانوا يرتلون القرآن والأدعية ويرددون الأناشيد بتناغيم صوفية ينبعث منها التواجد والحنين إلى الله ، ولا يبعد أن تكون رابعة أول عهدها بهذه الحلقات وسنها ناضجة غير مبكرة قد شاركت فيها بالعزف على الناى ، إذ أن هذا العزف قد رافق حركات الصوفيين من ذلك الحين حتى أيامنا ، فحلقات أهل الطريقة والدراويش محترفين ومحاكين ، من التى عرفناها فى دمشق ومجالس

الذكر والوعظ للرجال والنساء ومواكب الدين فى الموالد والأعياد بمصر والبلاد الإسلامية لا يزال فيها الإنشاد والعزف على الناى وقرع الطبول والدفوف .

فالتصوف إذن عند رابعة قد آتاها من طبع وموهبة ومراس لا من تحصيل وتقليد ، أو تكلف واحتراف ، فقد ولدت ونشأت متدينة وانبثقت فيها أسباب الصوفية دون أن تدرى ، وكانت الحياة الاجتماعية والدينية فى بلدها وعصرها حافزة إليها ، فكانت متورعة زاهدة ، وفقيرة صابرة ، وتائبة قانتة ، ومتوكلة على الله وحده راضية بما قسم لها ، وقد ظهر منها ، منذ طفولتها وصباها ، وفى إبان تصوفها من غير أن تعلم ما ظهر من العارفين المحصلين فى الصوفية وأهل المقامات ، وهى نفسها كانت منساقة نحو النبع الذى يروى ظمأ الروح ، ويجد الوجد الأسمى عنده الراحة والطمأنينة مثل ضال فى الصحراء ، لا يزال يلوب على نبع الماء بعد طويل الصدى حتى تلوح له من شدة الظمأ ، والترامى على برد الحياة ، واحات ومرئيات فى الأفق ، فيها تخيل متهدل السعف ، وظل ظليل وماء سلسبيل ، وما تلك المرئيات الخالبة إلا سراب ، ولا يزال شريد الصحراء يسعى إليه حتى يموت دونه ، وربما وجد أولئك الضالون فى الفيافى والمفاوز الذين أحرقتهم أشعة الشمس نبعة فى واحة ، فبادروا إليها وهم بين الموت والحياة .

كذلك كانت رابعة التى أحرقها الشوق والصدى إلى الذات الإلهية بعد أن زهدت فى البشرية واجتوتها وأعرضت عن مطالبها ومظاهرها ، وتهكمت على متلمسيها من أصحابها الزهاد لقد سعت إلى الله وحده من أجل وجهه الكريم ، ورضاه الأسمى ، لا طمعاً بأجر وثواب ، أو خشية من نار وعقاب ، وها هنا انفصلت رابعة عن المتهجدين الزاهدين خوفاً من الآخرة ، منصرفةً إلى البحث عن نفسها الضالة التى كانت سبقتها ، فاردة الجناحين فى عالم أعلى ، لا ترقى إليه الشبهات ولا يدركه الفناء ، ولما لاحت لها تلك النفس ولوحت بأن تتبعها نظرت رابعة إلى الورقاء التى استطاع ابن سينا بعدها بعصور أن يصور هبوطها من المقام الأرفع إلى المقام الأدنى .

ولا أرتاب فى أن قوة هائلة من السر الروحى ، قد دفع رابعة إلى هذا الغرام ، فلما أحست بانكشاف النور الذى بلغت ساحته بعد المجاهدة الطويلة بهرها ما رأت ، إنها لم تنظر خارج نفسها فحسب ، وإنما نظرت فى نفسها ذاتها ، والقرآن حين دعا إلى النظر فيها وإطالة التأمل فى عالمها بقوله « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » التقت هذه الكلمة الكريمة مع كلمة إغريقى حكيم كان معلماً للفلسفة الأولى ، هو سقراط القائل فى المبدأ التأملى المشهور « اعرف نفسك » وقد عرفت رابعة نفسها فتراءت لها

الخفايا ، ولاحت لها الأنوار التى لا تبين بالأبصار ، وإنما تبين لبعض من اختصهم الله بكشف البصائر .

وكانت لرابعة أدعية تفيض باللوعة والشوق والتوسل ، فكم من مرة هتفت أعماقها بهذا الكلام :

– إلهى ، إذا كنت أعبدك خوفاً من النار فأحرقنى بالجحيم وإذا كنت أعبدك طمعاً فى الجنة فاحرمنيها ، أما إذا كنت أعبدك من أجلك فحسب ، فلا تحرمنى يا إلهى وجهك الكريم».

وهذا دعاء من قلب حائر لا يزال فيه قلق وتساؤل لأن الله لا يحتاج إلى أن يعرف حقيقته المطيع أو العاصى ، فقد وقر فى علمه الأزلى كل شىء ، ورابعة فى ناسوتها هذا تلقاء الملكوت لم تخرج عن كونها مخلوقة ضعيفة ، تصبو إلى الطمأنينة والسكينة ولا أصف هذا بالمساومة ، فإن رابعة أجل من هذا فى صوفيتها الخالصة ، وقد سلكت الطريق إلى الحق بصدق وإخلاص ومعرفة ، وإن كانت فى تصوفها نزاعة إلى العبادة للعبادة ، كما يقال فى أيامنا ، « الفن للفن » وهى نظرية قام من يسفهها ويفندها ، لأن للفن تكاليف ذاتية واجتماعية ، فكيف يكون انعزالياً من أجل نفسه ؟

وهذه المقالة عينها أقولها فى التصوف ، فعبادة الله هى لخير الوجود وطمأنينة المؤمنين وللشكر على النعمة والعزاء للمفجوعين

والندامة للملحدين والخاطئين .

فالتكاليف النفسية فى الصوفية الانطوائية ، والوله والبكاء فى سبيلها ، فيها تعطيل للمعاملة ، وتوقيف للدنيا التى سيرها الله بنظام وإحكام ، وتبادل وتجارب فالتصوف العملى هو المنشود ، لا التصوف النظرى القائم على شطحات الوهم والذهول ، الهائم فى التيه والمجهول .

ولئن كانت رابعة فى صوفيتها الأخيرة ، على مذهب العبادة للعبادة ، فلا نلومها بمقدار ما نلوم كثيراً من معتنقيه وذويه ، وفيهم شباب وكهول كانوا أشداء على أنفسهم فى إهمال الدنيا والغض من أهلها والأخذ بالتقشف والحرمان فتعطلوا وعزفوا عن أى عمل سوى التهجد والاعتكاف فى المحاريب والزوايا ، مصلين مبتهلين ، وقد فاتهم أن الإسلام فضل العادلين بين الناس ، والساعين إلى رزق بيوتهم على كثير من العابدين المتعطلين الذين حسبوا أن العزلة والتقشف ودوام التعبد يؤدى إلى الجنة والنعيم فى الآخرة ، والاستمتاع بكل ما فاتهم فى الدنيا .

فلوم الرجل المتعطل مهما أخلص للعبادة أحق باللوم من المرأة المتعطلة للاعتكاف والتزهد ، لأن الحياة وإن كانت تطالب الجنسين بالعمل ليستحقا البقاء ، فإنها تعتمد على الرجل أكثر من اعتمادها على المرأة التى تتصدى للموت كلما ولدت

للحياة وقد يكون فى تفانيها بأمومتها وبيتها، أو بكفاحها وصبرها، خير من أية عبادة . . .

هذه هى الغاية من العبادة التى توختها رابعة فى مذهبها الدينى وتصوفها الذى سبقت إليه، وكل ما روى عنها يدل على تجافيها عن الدنيا واستمساكها بأمر واحد، وقد لا يكون الآخرة، ومصداق هذا ما نجده فى قولها حين سئلت عن الجنة، فأجابت:

ـ الجار قبل الدار !

إنها تريد الله وحده، وهذا دعاؤها الذى ناجت به ربها ليحقق سؤلها .

ـ إلهى، كل ما قدرته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأوليائك، لأنى لا أسعى إلا إليك أنت وحدك . . .

وقد زارها مرة أحد علماء البصرة، فأخذ يتحدث عن مساوئ الدنيا فقالت له رابعة :

ـ آه لا بد أنك تحب هذه الدنيا، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فمن يريد أن يشترى ثياباً يتحدث عنها كثيراً، ولو أنك تجردت تماماً عن هذه الدنيا، لما أهمك شىء من خيرها أو شرها .

ومثل هذا قالت رابعة لصحبها وإخوانها : سفيان الثورى

ومالك بن دينار وصالح بن عبد الجليل حين تذاكروا الدنيا أمامها وانتقدوها ، فقالت لهم رابعة مقرعة متهكمة :

– إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيها ..

ثم تلفتت إلى سفيان الذى كان يتلقى عنها ويتأدب بأدبها وقالت له :

– نعم الصوفى أنت لولا رغبتك فى الدنيا !

فقال :

– ماذا ترين من هذه الرغبة ؟

فأجابته :

– فى الكلام . . .

والكلام الذى تعنيه رابعة هو الخوض فى أحاديث الدنيا ، بما لا فائدة منه وما يتناوله عامة الناس .

فرابعة فى هذا التفلسف الفكرى والتصوف الروحى ، ينطبق عليها ما سماه العلماء المحدثون بالإشراق والتجلى ، وهذه المرحلة ذاتها لم تقنع بها رابعة لأن القلق والشرود كانا يعاودانها فازداد ظمؤها إلى ما وراء الوجود ، وطال تأملها فى أسماء الله وصفاته راجية أن تفنى فيها ، وحين استوفت أدلة التوحيد بعقلها الباطن وإيمانها العميق انبجس فى قلبها النور الأسمى الذى ينبجس فى قلوب الصالحين والمتقين ، وهو قبس إلهى لا يؤتاه إلا القليل .

ولما بلغت رابعة الدرجة التى وراء الصوفية ، وهى ما يعبر عنها المعاصرون من عرب ومستشرقين وغيرهم بالتيوسوفية أى المعرفة القلبية استراحت نفسها واستروحت عبير الخلود ، وهى على ضفاف الأبد إذ شفّتْ نفسها وصفت روحها ، وتحولت من دنياها التى احتوتها إلى برزخ الباطن وهناك عرفت الله بالتجرد المطلق والصفات القائمة بذواتها ، والمتأبية على طوابع الموصوف ، وطالما كان الجدل طويلاً فى مراحل التصوف ، والفلسفة الإسلامية حول الصفاتيين ومذاهب المعتزلة فى هذا الصدد . وإن ما وصل إليه العلماء بالاستنباط والتمحيص ، والمماحكة المملولة ، حتى استطاعوا أن يتفهموا حقيقة الموصوف بلا صفة تمثلها المادة قد أدركته رابعة بقلبها الكبير ووعيها الدقيق وبصيرتها الملهمة ، وجناح المعرفة الذى انطلق برابعة محلقاً فى ديمومة الاستغراق والتأمل قد حط بها على الروض البهيج حيث تصدح العنادل الفردوسية هابطة على الأغصان المتهدلة مواجة على نسمات اللهفة والحنين إلى وجه لا يغيب وفيض لا يغيض .

عشق الإله :

ماعرفنا فيمن ذابوا على الأرض حبًّا وغراماً مثل ليلى قيس وليلى توبة فى العرب ، وجولييت روميو فى الغرب .

إن هؤلاء النسوة اللاتى كن ضحايا الهيام والهوى ، قد هدهن الحب البشرى بتباريح الشوق والحرمان ، فكانت قصصهن أعاجيب فى احتمال الضيم والأسى وبذل الروح والفداء من أجل الإنسان المحبوب الذى عز الوصول إليه واستحال ، وتقطعت دونه الآمال ، فهن لم يرفعن نحو السماء أعينهن الضارعة التى ملأها البكاء والرجاء ، إلا لكى يتوسلن إلى الله بأن يستجيب لهن ، وأن يخفف عنهن غمرات اللوعة والشقاء ، ولهؤلاء فى تاريخ الحب الذى تيَّمهن أمثال ونظائر لا يحصى لها عد ، تعج بسير العشق والغرام وصور التدله والجوى ، فيهن العفيفة اللهيفة ، والمتهتكة المتهافتة كن يعشقن المخلوق الفانى ، ويجدن الحياة والحب ، نعمى هذه الدنيا وفرحة الوجود .

أما رابعة فكان حبها من طراز أسمى ، تأبى على البشرية ، وارتقى إلى الإنسانية المثلى ، بل تجاوزها إلى الذوبان والاحتراق فى حب سماوى لم يسبقها إليه أحد فى الإسلام .

فهى حين اندمجت بالصوفية ، وتأتى لها الإلهام والعرفان ، وتجلى إيمانها المحض الذى لم يمازجه أمل بشىء وغدت عبادتها منقطعة النظير لوجه الله وحده ، عندئذ طرقت بيدها مستأذنة مترجية ، حلقة الباب الأعلى ، ومثلما تخيل واصفو قصة المعراج ارتقاء الروح الإنسانية المثلى ، نحو سدرة المنتهى ، كذلك أستطيع أن أتصور رابعة فى تعمقها البحث عن الذات الإلهية وتعلقها بما وراء الحس والغيب ، حتى مس جوانحها وسريرتها حب تصفى من الأكدار وتزكى ، وخفف من ثقل روحها الملتصقة بجسمها ، لتستطيع أن تسمو وترقى فى عبادتها مثل « بالون » من استنباط العلماء فى زماننا ، يصعد إلى أجواز الفضاء حين يخف وزنه عن هواء الأرض .

ومهما ارتقى علم النفس وهو علم حديث لم يعرفه الأوائل ، فلن يستطيع أن يعلل منازع النفوس ، ومذاهب الأرواح ، وأكبر حيرة له حين يبحث فى الميل والهوى إذ يتظنى دائماً ويخمن ، ويحدس ولا يصيب تحليله وتعليله إلا فى القليل ، وكما تختلف الوجوه البشرية فلا ينطبق واحد على الآخر إلا فى التوائم غالباً كذلك تختلف الأنفس فى الطاقة والمزاج والإشعاع والهوى ، ومن عادة الحب أن يولد بغير إرادة صاحبه إلا من تصدى له فإنه يصاب ، وكانت العيون سبيله إلى القلوب ،

إلا من أحب وهو أعمى ، فكانت أذنه أحياناً عاشقة دون نظره ، لكن أهل الأرض لم يبرز من بينهم واحد عشق ومات فى سبيل معشوقه ، دون أن يراه ، إلا رابعة فقد أحبت حتى العشق مولاها الخالق لا الذى ملكها واشتراها ثم أعتقها ، ولا الذى خيب ظنها وجرح قلبها ، فتولد فى روحها بعد صوفية عميقة وعبادة طويلة ، حب لا يشبهه حب ، لا يرى فيه المحبوب وإنما يتجلى فى بدائعه وأكوانه ، فى كل آية من آياته وقد راحت وحدة الوجود تريها ربها فى كل شيء يحبه ، وتمهد السبيل أمامها .

وهذه لمحات ونفحات من كلمات رابعة عبرت فيها عن هذا الحب الذى تيمها ، ورقق وجدانها ، وفاض من إيمانها ، قالت تناجى محبوبها الأوحد بضراعة وخشوع :

– إلهى ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ، ولا رفيف ظل ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شيء » .

وفى غير هذا القول ألفاظ تنضح بالحرقة واللوعة والشوق وتشف عن قلب لم يشغله سوى الفناء فى الله والتماس رضاه ، وقد سئلت مرة : أتحبين الشيطان يا رابعة أم تكرهينه ؟

فأجابت :

ــ إن حبي لله قد صدنى عن الانشغال بكره الشيطان . . .

ولما أرادوا إحراجها سألوها .

ــ أتحبين الرسول عليه السلام ؟

فقالت : إنى والله أحبه ، لكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوق . . .

وليس معنى قولها هذا أنها لا تحب الرسول وإنما غايتها أن حبها لله لم يترك مكاناً لسواه ، لكننا نجد المناوى فى طبقات الأولياء يقول :

« إن رابعة كانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة ، فقيل لها : ما تطلبين بهذا ؟

قالت : لا أريد به ثواباً وإنما أفعله لكى يسر رسول الله يوم القيامة فيقول للأنبياء :

ــ انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها . . .

فإذن كانت رابعة تريد رضا الرسول عليه السلام ، وترتجى تكريم المرأة بتكريمها ، فهى تحبه وتتمنى لقاءه يوم الدين .

وكانت كلما ناجت ربها فى صلاتها تضرعت إليه مؤكدة سبب عبادتها بقولها :

ــ وعزتك يا رب ، ما عبدتك لجنتك ، بل لمحبتك ، وليس من أجلها قطعت عمرى فى الوصول إليها . . .

يا رب ؛ أتحرق بالنار قلباً يحبك ، ولساناً يذكرك ، وعبداً يخشاك ؟ والظاهر أن هذا الخوف الدفين من نار الآخرة كان يعاودها على الرغم من تجردها وتحررها فى عبادتها ، دون أى رجاء فى نعيم ، أو رهبة من جحيم ، فليس للمرء مهما اعتزل وتبدل منجاة مما يسمع ويرى ، بل إن رؤية الشىء ترد إلى الخاطر كل ما انطلق منه أو تعلق به ، فكانت رابعة إذا رأت النار وثب قلبها فى صدرها ، لكنها لم تبق على خشيتها كعادتها السابقة ، فتسارع إلى إطفاء لهيبها بدمعها كلما رأت ناراً ، وإذا نظرت إلى الماء ترقرقت نفسها ووجدت برد العافية فى قلبها ، وقد بعث فى خاطرها هذان العنصران الأزليان ، وهما النار والماء ، هاجساً غريباً لا يحمل عليه السحر ، ولا يدعو إليه الجنون ، وإنما يتهادى على موسيقى وترانيم تجل المسامع عنها ، فقد انبعث منها فى حضرتها رمز يداوى الظلمات ويحيلها أنواراً ، ويجبر القلوب الكسيرة فيملؤها عزاء وأملا ، وقد قامت رابعة ذاتها بغرس هذا الرمز فى حقل الأبدية لتبعث بسلطان روحها عالما أسمى من عالمنا ، فقد رؤيت ذات يوم تحمل بيد ماء وبيد ناراً ، وتعدو مسرعة ، فسألها الذين رأوها :

— إلى أين يا رابعة ؟

فأجابت :

– إلى السماء ألقى بالنار فى الجنة ، وأصب الماء فى جهنم فلا يبقيان سبباً لعبادة الله من أجلهما ، وينظر العباد إلى الله دون وازع مادى أو طمع معنوى ؛ فكان صنعها هذا الذى مثلت فيه لهب الجحيم ، رمزاً لفكرتى الثواب والعقاب ، فهى تريد إلغاءهما ، لما فيهما من خير أو شر ، لتسود عبادة حرة مثلى غير مأجورة ولا تنتظر جزاءً ولا شكورا ؛ وهذه مطالب فى الدين لا يمكن تحقيقها على الأرض لما فيها من مثالية وخيالية فوق طاقة البشر ، ورابعة تصدر دائماً فى أحكامها وآرائها عن نفسها التى شقيت بالعبودية ، فهى تسعى إلى الحرية المطلقة حتى فى عبادة الله ، ولا تريد أن تكون عبدة له فيها .

لقد ابتدعت رابعة الحب الإلهى فى تصوفها وأخلصت له العبادة والمذهب ، وغدت مثلاً فى صفاء الروح وإلهام البصيرة ، فكأنها حوارية من الحواريين تقدست صلاتها وخلصت نياتها ، وأخذت بيدها عصاها ، وكانت غصن شجرة ، ووضعت على منكبيها رداء مهلهلاً مرقعاً ، وقد برزت أصابعها من نعل مطارق ، ومضت والناس يحسبونها تمضى على غير هدى ، لكن رابعة التى ملأ الإيمان قلبها ، وشرح صدرها وهداها إلى حقيقة الوجود ، بقيت ظمأى إلى السر الإبداعى الأول ، فكانت تهدهد أشواقها بالتناجى والتأمل ، وأخذت تتراءى لها كما قال رواة الأخبار

عنها أطيافٌ وصور لطيفة شفافة، وكانت تسمع نداء خفياً على نحو ما قيل عن جان دارك الضحية الفاتحة التى ذهبت مع اللهيب .

ورابعة نفسها ، ما نجت من اللهيب الذى فرت منه ، وودت أن لا يصيب غيرها ، فقد كانت شعلته المتوقدة تتبعها وتلوح لها ، فأشفقت منها على قلبها الحانى الذى امتلأ بحب الله أن يذوب فى اللهب ، وقد تيمها هذا الحب ورقت فيه الشغاف حتى ازدوج ، إنها لو عادت إلى زماننا لوجدت المعانى التى تريدها فى أدق شعورها ، بما عرفنا وسمعنا من المخترعات التى غيرت بعلمها وجه الدنيا ، فالطاقة الذرية التى طلع بها علماء هذا العصر ، وتوصلوا إلى حل عقدتها التى تراءت للإغريق ، ومرت خلال العصور حتى بلغت أيامنا شىء تفتح لرابعة من مأتاه ، ولعلها تكون فيه على جانب من العلم يحير الألباب ، لا كعلم زماننا فى الرياضة والكهرباء وإنما فى المعرفة الإلهية والروحية التى استطاعت أن تفجر الذرة النفسية فى رابعة ، ومتى انفجرت هذه الذرة اتصف صاحبها بالجوهر الأصفى .

وما كان حب رابعة شبيهاً بما عرفه الإغريق ، وجاء فى الأفلاطونية ولا بما شاع لدى عباد الجاهلية ورهبانها ، وإنما هو نموذج مفرد ، ونسيج وحده ، اخترعته رابعة فى حياتها الروحية ،

ودخل المذاهب الإسلامية ليخط جمالاً للمحبة تنزه أن يحل فى الجسوم ، وكم يخطر ببالى خيال « أورفة » المنشد الأسطورى الذى وقف على ضفاف الجحيم عازفاً على القيثار ، حتى ألهى المعذبين عن لذع الاحتراق بالنار ، فأرى على تلاوينه المتماوجة طيف رابعة لا بعصاها القلقة وردائها المهلهل العتيق ونعليها الباليتين ، وإنما أتخيل طيفها يسعى إلى ضفاف النعيم وعليه غلالة من نور ، فأخذت نايها وراحت تنغم فيه هذه الأبيات :

أحبك حبين ، حب الهوى | وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى | فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له | فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى | ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

لقد فسر بعض الصوفيين والمعنيين بالصوفية ، معانى هذه الأبيات المشهورة وأولوها بما يتفق مع النزعة الروحية التى كانت تجيش فى هواجس رابعة وجوانحها ، وما يلائم طبيعة الفهم الصوفى ، فكان كلامهم على هذا الحب المزدوج أو هذين الحبين اللذين ذكرتهما رابعة فى منظومها متقارباً متلاقياً ، وقد راعهم أول الأمر أن وجدوا رابعة تحب ربها عشقاً وهوى ، وخاضوا فى مرامى هذا العشق الذى لا ينبغى أن يكون كعشق البشر ، ففسروا الأول ، بأنه حب الصوفى الذى تجاوز المدى

فى العبادة إلى ما فوقها ، فأصبح تواقاً إلى طلعة الله . وقد قال عنه أبو طالب المكى فى كتابه « قوت القلوب » إن حب الهوى وحب الاستحقاق يحتاجان إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويخبره من لم يشهده ، وفى تسميته ونعت وصفه ، إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ولا قدر له به ، ولكننا نجمل ذلك وندل عليه من عرفه فالأول معناه أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين لا من خبر وسمع وتصديق من طريق النعم والإحساس ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ، لكن محبتى من طريق العيان ، فقربت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرغت لك » .

وأما الحب الثانى فى تفسير المكى صاحب « قوت القلوب » فهو حب الإجلال لذى الجلال ، وليست بباعثته نعمة ولا دخل فيه للمتعة الحسية ، وما يستحق جزاء عنه ، وكاد يجمع المفسرون لهذين الحبين على أن حب الهوى هو حب الله وحده لإحسانه إليها ورؤيته بأنعمه وفضله ، وحب لأنه تعالى هو أهل له ، فقد هيأ لها أن ترى وجهه عنده آخراً كما أراها إياه عنده أولاً ، فله الحمد على ما تفضل به فى ذاك عندها فى الآخرة ، بل ليس لها فى ذا ولا فى ذاك إذا كانت وصلت إليهما به ، فهو المحمود فيهما لأنه وصلها بهما ، وقد عقب أبو حامد

الغزالى فى كتابه « الإحياء » على مثل هذا التفسير ، فقال : أرادت رابعة بحب الهوى حب الله لإنعامه عليها وإحسانه إليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له ، الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين .

وأعلى الحبين وأغلاه فى نظر الغزالى وغيره يبعث الشوق الدائم لوجه الله والاعتراف بفضله ، ويشغل بالذكر عن الدنيا ، ورابعة لم تجد نفسها جديرة بهذا الحب بل رأت أنها مهما كابدت فى سبيله فلا تستحق جزاء عنه يوم الآخرة ، بل كان يعاودها الخوف من تفريطها فيه ، فتتفانى فى عبادتها وصلاتها بقلب تفجرت فيا ينابيع المعرفة والنور ، فهو وحده الذى كان دليلها وسبيلها ، ومنه فاض على لسانها وبيانها معنى هواها المثالى المنعتق من أى قيد ، الظامئ أبداً إلى المزيد ، اللهيف دوماً إلى رؤية الله المنزهة عن الحدود والقيود ، والنهاية والمقدار .

على أن أكثر المفسرين الذى تلاقت آراؤهم فى تأويل هذه المعانى التى عبرت عنها رابعة فى حبها الإلهى ، فاتهم مع تأخرهم فى الزمن عنها أن يذكروا إلى جانب هذا الحب المزدوج ، المتمازج بأسمى نفحات الروح ، وخواطر المعرفة والعبادة ، أن شاعراً ماجناً لعله أدرك عصر رابعة وشهد تعدد المذاهب الروحية فى زمانها وأيامه على تفاوت فى القيمة والكرامة والوجهة ، هو

أبو نواس الذى سبق أيضاً إلى تعبير مستطرف فى تصوير شعوره حين يأخذ فى الشراب ، فقال :

لى نشوتان وللندمان واحدة   شىء خصصت به من دونهم وحدى

وازدواج الحس فى الحب وغيره أمر نظرت فيه الفلسفة المعاصرة وعلم النفس ، فإن الطاقة الروحية إذا طفرت أشبهت بارودا يشتعل ، فخوارق البطولة والنبوغ والطموح والمواقف الحاسمة فى التاريخ لم تكن إلا ممتزوج وثبات فى الروح وانتفاضات فكرية تشبه انفجار الطاقات ، والربانيون الذين أخلصوا لله الدين وصدقوه فى العبادة والصوفية أحس كثير منهم فى بعض الأطوار بالطاقة الشعورية قد بلغت ضعفيها أو أكثر .

ولقد وجدت رابعة فى حبِّها هناءة قلبها ، وطاب لها الألم والضنى فيه فكانت تخامرها نشوة روحية وهى تعانيه ، بل كان التفكير والتأمل يشغلها فى كل لحظة عن الإحساس بأى ألم فى جسمها وجوارحها ، وربما استلذت مواجعها وهانت عندها لا تعبأ بها ؛ من ذلك ما روى عن دخول قشة فى عينها وهى تصلى على حصيرتها ، فأكملت صلاتها دون اكتراث لما أصابها ، وانخبط رأسها مرة بركن جدار وهى تنهض ، وكانت الخبطة عنيفة ، فلم تكترث لها وعجب من كان عندها لما أبدت من التجلد ، قائلة للمتسائلين عن صبرها على هذا الألم :

ـ شغلت بموافقة مراده فيما جرى فلم أشعر بما ترون . . .

ويبدو من خلال الكلمات التى رددتها فى إبان تجلدها وصمودها أنها كانت مسترسلة فى سبحات تبتل أو شطحات تفكير وتأمل ، فلم تحس بالصدمة والخبطة وما ألقت بالها لغير ما كانت فيه . . .

ومن هذا القبيل ما رواه عن رابعة فريد الدين العطار فى كتابه « تذكرة الأولياء » إذ تعود صحبها أن يزوروها ويتلقوا عنها ، وأن يدور بينهم وبينها تحاور وتساؤل ، فلما خاضوا مرة فى حديث التصوف والعبادة سألتهم رابعة ما المراد بالصدق ؟

فقال أحدهم وكان منهم سفيان الثورى والبلخى ومالك ابن دينار ، وربما غير هؤلاء من الزهاد المتعبدين :

ـ ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه .

فقالت رابعة : هذا غرور ، فأحب الثانى أن يعبر عن معنى يرضيها ، ويحوز إعجابها فقال :

ـ ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه .

فلم تتهكم رابعة هذه المرة ، أو تبدى سأما وهزءا ، بل تلفتت صوب مالك بن دينار وكأنها تستطلع رأيه وتمتحن صدقه ووعيه لدقائق التعبير فقال :

ـ ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . . .

فأبدت رابعة الرضى والبشاشة وأجابت :

– هناك يا مالك أفضل مما قلتم جميعا . . .

فعجلوها بالسؤال مستفهمين :

– تكلمى إذن أنت ، وهاتى رأيك . . .

فقالت :

– ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه . . .

فوجم صحبها لكلامها وحطوا لها الطاعة والغلبة فيما ارتأت ، وكأنها كانت تعيد إلى خواطرهم قصة النسوة المصريات اللاتى قطعن أيديهن وهن مأخوذات بجمال يوسف ، إذ أمرأته امرأة العزيز بأن يدخل عليهن ، فلما رأينه أكبرنه والتمسن المعذرة للعاشقة الماكرة ، ونسين آلام أيديهن متلذذات منتشيات بطلعة الفتنة وروعة الجمال .

وسواء كان هذا الحوار بين رابعة وصحبها قريباً من الواقع والحقيقة أم تحامل عليه التمويه والالتباس والتحريف فى روايته وصنعه منسقاً على هذا الشكل فإنه تعبير عن شعور الصوفى المخلص الذى يستغرق فى غيبوبته الصوفية عن حواسه شارد الروح فى عالمه الأسمى ، نشوان فى توغله بالابتهال وذكر الله غير عابئ بجهد أو ألم ، فى أثناء التجلى والانشراح .

وكما سألت صحبها عن الصدق ليتأدبوا بأدبه فى زهدهم وعبادتهم سألتهم عن معنى السخاء ، وكيف يعدونه فيهم ؟

فقال سفيان الثورى :

ـ أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله ، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه .

فأجابت رابعة :

ـ أخطأتم أيها الرجال !

فقال لها :

ـ فما السخاء عندكن ؟

أجابت رابعة :

ـ أن تعبده حباً له وفيه لا طمعاً بثواب وجزاء . . .

ويظهر من هذا التحاور وغيره مما روى عن رابعة مع المتصوفين العارفين ، والزاهدين العابدين أن كان لها فصل الخطاب فيما يتحدثون ويتساءلون وقد اعترفوا بفضلها وبراعتها فى الكلام ، وعدوها أستاذة لهم ، ومؤدبة وناصحة .

كان صالح المرى الصوفى المتعبد يحضر مجلسها ويستمع لحديثها مستزيداً مما تقول مستفهماً عما فاته ، فلما سمعته يكثر من هذا القول : « من أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له » قالت

له رابعة مؤنبة :

— إلى متى تقول هذا ؟ متى أغلق هذا الباب حتى يفتح؟

فاستدرك صالح وقال :

— شيخ جهل وامرأة علمت !

وبذلك أقر لها هذا الصوفى الكبير بالعلم والمعرفة ، كما أقر لها من قبل ومن بعد، أنداده ومريدوه، وكانت رابعة بعلم التوحيد على ما بدا من أحاديثها ومحاوراتها بصيرة متبحرة ، فسمت بالذات الإلهية عن الحدود والقيود ، وهى تعلم أن باب الله ليس بذى مصراع أو مفتاح ، وإنما هو رمز للكون والوجود الذى لا يدركه حد ، ولا يحيط به قيد ، فقد وسع السموات والأرض .

وكلمة الشيخ هذا تردنا إلى مثلها من خليفة راشد ، هو العادل عمر بن الخطاب الذى أقر ذات يوم لامرأة بالعلم والصواب ، واعترف لها بالخطأ حين كان يخطب قومه بموضوع يمس مواريث النساء من الرجال ويتحدث عن أبغض الحلال إلى الله وهو الطلاق فقال للمرأة التى أنصتت إليه وأدركت خطأه :

— رجل أخطأ وامرأة أصابت !

ورابعة التى أجلها الرجال وقدروها قدرها ، حين رأوها

فى أندادهم ، بل وجدوها فى التصوف أفضل منهم ، وما كان لرجل أن يجل امرأة إلا بعد أن يستيقين من فضلها ورجاحتها ، وهذه سنة الرجال فى كل عصر ومصر ، وقد تبحبحت رابعة بهذه المكانة ، وافتنت فى طرق التعبير ، ولم يستعص عليها رمز ولا بيان ، وقد سألها أحد العلماء :

– إنك بارعة فى الكلام ، أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟

فأجابت :

– إنى حارسة رباط فعلاً ، لأنى لا أدع شيئاً يخرج مما فى داخلى ، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج . . .

وكأن محدثها الذى امتحن براعتها بهذا السؤال أراد أن يشبهها بالمرابطين فى الثغور الذين يحمون البلاد من العدو وقد أوتوا مزايا خطيرة ، ورابعة حين أعجبها هذا التشبيه علقت عليه بأنها من نفسها فى رباط ، والحياة الإنسانية أشبه بثغر والعدو يتناوشه إذا سنحت غفلة أو زلة ، وما العدو هذا إلا مساوئ البشرية وخطاياها ، وعلى الإنسان من الداخل أن يقف فى مشارف حصنه النفسى ليدفع عنه العدو الكامن أو المغير خشية التردى والعثار .

وهكذا نجد رابعة قد حذقت صنعة التعبير الرمزى والمكشوف فهى فى حوارها وأحاديثها ، تصطنع الكناية والتورية ، وتجيل

الرمز فى كلامها ، أما فى تعبيرها عن الحب الإلهى فقد كشفت قناع الغموض والرموز ، وجاءت بألفاظ مسجعة صريحة ، ومعان مجنحة صوفية ، كما نجده فى جوابها على من سألها كيف وجدت هذا الحب الذى مارسته ووصلت إليه :

« ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطق عن شوق ، ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف ، وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب .

فالهيبة تخرس اللسان عن الأخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، فما ثم إلا دهشة دائمة وحيرة لازمة وقلوب هائمة وأسرار كاتمة . . .

ولا يستكثر من رابعة وقد أتقنت فن الكلام وكانت قدوة العارفين ورائدة المتصوفين مثل هذا التصوير الذى ابتدعته وعاشت فيه مكابدة مجاهدة ، والظاهر أن المتيم الذى برح به الجوى يصبح من رقة النفس والحس بحاجة للتعبير الدقيق عما يشعر ويعانى وقد يسرى عنه وصف خلجاته ووجدانه ، فكأنه يجرد من ذاته شخصاً آخر هو من تكوينه وتمثيله ، فرابعة وهى تصف تجليات الحب الإلهى تستعمل عبارات هى فى حد ذاتها

سجعات متتابعات ، ولا ندرى مبلغ صحتها ونسبتها إليها ، لأن شيوع هذا الضرب من الكلام لم يبدأ مبكراً فى الإسلام وإنما تأخر حتى جاء المترسلون أصحاب الزخرف والتنميق ، وكيف كان هذا الأمر فإن هذه الكلمات المسجوعة كانت مشبعة بشحنات مغناطيسية قلبية ، مضمخة بالوجد الصافى والذكر الإلهى ، ولعل هذه الألفاظ الشعرية أو المنظومة مما نقل عن رابعة كان من إنشاء بعض الرواة ، فإذا دخل الشك تصنيف الحديث وهو الذى أثر عن الرسول عليه السلام ، لأنه لم يمله بحروفه وكلماته ، فأجدر بنا أن نشك أيضاً فيما أثر عن رائدة التصوف والحب الإلهى ، أول عهد المسلمين بمثل هذه النزعات الروحية .

كانت روح رابعة تسرى خلالها ، وكأنها تزايلها وتعود إليها ، وقد وصلت إلى درجة تجريدية على ما يظهر فى حوادثها ومجالسها ، وخاصة أواخر عمرها حتى بدا منها إسقاط للحوائل فهى تقول :

— ليس بينى وبين الله بين . . .

وهذه الجسارة الخطيرة ، جرأة فى إسقاط الحساب بين الخالق والمخلوق ، فالبينونة ضرورية بينهما ، ولا تزول واو وهماً ، فتهجم رابعة تحت ضغط النشوة الروحية التى خضعت لها ، أمرٌ

لا يشفع له الاندفاع والخلوص ، لأنه يمس حرمة العبادة ويزيل أنبل رموز الوجود .

ولا ندرى فى آداب المخلوق نحو الخالق مقدار ما يشمل العفو للإساءة ، ومثل ولد مدلل يشتط على أبويه ، بدت رابعة فى بعض تسابيحها ومطارحاتها الروحية ، لكن حرم الأدب الصوفى ليس بمتمنع على مثل ذلك ، ولا متأبٍّ على لسان الواهين المتيمين .

ومما نسب إلى رابعة فى إطار هذا الوله والتتيم قولها :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة   وأنا المشوقة فى المحبة رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها   ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له   وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلى إنى أحب جماله   تالله ما أذنى لعذلك سامعه
كم بت من حرقى وفرط تعلقى   أجرى عيوناً من عيونى الدامعه
لا عبرتى ترقا ولا وصلى له   يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

ولعل العقل والنقد لا يقفان أمام هذه الأبيات مغتبطين مقتنعين ، فقد جاوزت رابعة المدى فى هذه المحبة التى ارتفعت إلى القمة ولا تخشى الهبوط ، على أن هذه الأبيات الغزلية وإن حملت فنًّا مستطرفاً فى التعبير والتصوير ، فإن طائفاً من زوال الكلفة يموج فيها حتى يفقدها أدب الحب وحرمة التصوف .

فللغزل مهما يكن رفيعاً أو وضيعاً حدود ، ينبغى أن لا يزايلها ، لأنها هى التى تفرض قبوله أو الإشفاق عليه ، ولأن ساحة العبادة ينبغى أن تظل مقدسة لا تطؤها الأقدام إلا على ريث وحرمة ، فإزالة الكلفة من جانب رابعة باسم الحب الإلهى أمر لا تسيغه الابتهالات الخلقية ، فخطاب الإله باسم هذا الحب ، وعلى هذه الطريقة كخطاب الفانى للفانى مدعاة للنقد والتحرج والتعريض .

ولا بدع إذا نطقت رابعة بالشعر ، فقد فاض قلبها على لسانها شعراً ، وأعانت اللغة فى عصرها على البيان ، ولا بد أن تكون ثقافتها الدينية ساعفتها على الاقتباس ورواية الحديث وحفظ الأوراد والأدعية ، وهذه رموزها فى الصوفية تدل على تمكنها من اللغة ، وإجادتها التعبير ، والشعر المنسوب إليها وإن يكن خفيفاً ليناً فإن معانيه الصوفية رائعة سابقة ، وقد تفنن الشعراء الصوفيون بعد رابعة بمثل هذه المعانى ، وجاوزوا الحدود فى تعبيرهم واصطناع التورية فيما يريدون ، إذ كانت لهم خمرة إلهية ودنان روحية ومدامات سماوية ، بل ما أشبه هذا الشعر الصوفى بأناشيد الموالد والأذكار !

وشعر رابعة ومقولاتها فى الزهد والتصوف كانت على هذه الوتيرة فهو إما مناجاة تفيض بالغزل وتموج بالعاطفة والخيال

أو كان نظماً مما ينشد ويردد فى حلقات الذكر ومجالس الزهاد، ولا يمكن للباحث أن يأتى على كل ما قالت رابعة ، وأكثره منحول أو منسوب ، وهذه نماذج مما نظمته دعاءً وتضرعاً إلى الله :

يا سرورى ومنيتى وعمادى   وأنيسى وعدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى   أنت لى مؤنس وشوقك زادى
كم بدت منه وكم لك عندى   من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى   وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت براح   أنت منى ممكن فى السواد
إن تكن راضياً علىّ فإنى   يا منى القلب قد بدا إسعادى

ولما سئلت رابعة عن العزلة التى ارتضتها ، وكيف هجرت صحبها قالت :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى   وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً   وهواه فى البرايا محنتى
إن أمت وجداً وما ثم رضى   واعنائى فى الورى واشقوتى
وهجرت الخلق جمعاً أرتجى   منك وصلاً فهو أقصى منيتى

ونسق هذا الشعر كما قلت من قبل سواء فى وزنه وألفاظه ، أو فى معانيه المتداولة فى حلقات الذكر وأناشيد الابتهال ، يدلنا على طبيعته الإنشادية ، وهذا يوافق ما ألفت رابعة واقتبست

مما ملأ سمعها فى ليالى التهجد ، ومجالس التصوف والدين .

وجاوزت رابعة المدى فى شعرها والمألوف فى مثله ، وشف عن تباريح الوجد والوله مما لم يؤثر له شبيه من قبل . وقد أطال بعض الباحثين المعاصرين النظر فى هذا الموضوع ، وسبقهم إليه مستشرقون ألفوا وصنفوا فى التصوف الإسلامى ، لكنهم لم ينصفوا رابعة ولم يختصوها ببحث علمى أو دراسة منظمة تكشف الغامض من حياتها وتلقى الضياء على حقيقتها ، على أنهم وصفوا حبها الإلهى بالعشق ، لأنهم لم يجدوا فى المسلمين من أحبوا هذا الحب قبل رابعة ، وعكفوا عليه وتيمهم حتى اجتذبهم ، وتفانوا فيه مثل رابعة ، وهذا ما جعل بعض المستشرقين يرتابون فى نسبها الإسلامى وتعاليمها الصوفية .

فالمحبة فى المسيحية دين الدنيا وقد هام نبيها على وجهه مبشراً بها داعياً لها ، وتاريخها ممتلئ الصفحات بسير القديسات والقديسين الذين أكبوا على العبادة فى الهيكل ، وعزفوا عن العالم معتزلين متبتلين ، ولو نطقت خفقات نعالهم ، وهم يطبعونها على بلاط الأديرة خفافاً كالنسيم ، وقد ماجت على جسومهم المسوح السابغة ، وتدلت من زنانيرهم صلبانهم اللامعة لقالت جميعاً شهدنا فى أصحابنا محبة إلهية ، لا كمحبة الناس للناس ، لكن الباحثين فى سيرتها وتاريخها لم يصفوها بالعشق ، إذ نزهوها عنه ، ووصفوها

بالمحبة المثالية التى بشر بها المسيح . . .

وكلمة العشق لم ترد فى القرآن ولا فى الحديث ، لأن معناها يتجاوز المحبة ، ولا تكون وصفاً إلا لمن تخطى الحدود المألوفة والمعروفة ، والصوفية الإسلامية تشبه فى نشأتها وحياتها ، مدينة ذات أسوار وعليها حراس ، ولا يستطيع أن يدخلها إلا من حظى بالإذن ، ولها لغة خاصة وعلامة محددة وكلمة سر تحل الأغلال وتفتح الأقفال ، ولهذه اللغة معجم فى الأذهان والمصطلحات ، ولئن لم يطبع حتى اليوم لتفسر فيه الكلمة وما وراءها فإن لكل تعبير رمزاً عند الصوفيين ، وإذا رددنا الفضل إلى ذويه وجدنا رابعة هى التى وضعت الكلمات الأولى فى هذا المعجم ، بل هى أول من أوّل الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، وحين وقفت بباب تلك المدينة كلمة المحبة أو الحب ، تحرّج حراس المدينة ، وهم الصوفيون المتمرسون من كلمة الحب ، أن تقتحم مجالسهم وأحاديثهم زاعمين أنها من تعاليم اليهودية والمسيحية ، أو من تقاليد الأفلاطونية ، وأن كلمة العشق هى أجدر بالذكر والدخول ، ولعلهم إرضاءً لرابعة المؤسسة لمدينتهم ، أدخلوا هذا الضيف الكبير ، فمرت كلمة العشق تحت الأسوار تتهادى إلى معجم الصوفيين لتعبر بحروفها الثلاثة ، عن تاريخ امرأة مسلمة فذة سبقت الرجال إلى إعطاء هذه الحروف : عينها

البصيرة وشوقها المحترق وقلبها الكبير ، ويكاد مذهبها الصوفى يكون معدلا للتجاوز الدينوى ، فلو أحصينا عباد الله منذ كانوا لوجدناهم ألوف الألوف ، يتزاحمون بالمناكب ، وقوفاً على باب الجنة ، كل ينتظر دوره ليدخل ، ولو وقف رضوان بباب الجنة ، ونادى بهم ، لن يدخل هذا الباب إلا من أحب الله لوجهه وحده فى الدنيا ، لانصرفوا جميعاً إلا معشاراً كانت فى أوله رابعة ...

فرابعة إذن هى التى ابتدعت الصفاء فى العبادة والخلوص من كل غاية كسبية فى الدين ، ويجول الخاطر بى ، وأنا أكتب هذا أن أذكر شعراً لجبران خليل جبران نابغة لبنان ، صور فيه مطامع العبادة فى قوله :

والدين فى الناس حقل ليس يزرعه
إلا لمن لهم فى زرعه وطر
فالناس لولا عذاب النار ماعبدوا
ربّاً ولولا الثواب المرتجى كفروا

إن لرابعة فضل السبق فى الحب الإلهى ، والتجرد فى عبادة الحق وقول الصدق ، وحسبها مجداً أن كانت أستاذة فى التصوف وقدوة فى ممارسة الإيمان والتقوى عن معرفة وبصيرة ، وأن تتقدم أندادها ومتبعيها ، أمثال بشر الحافى وذى النون المصرى وابن

الفارض وابن عربى وغيرهم ممن سلكوا مسلك الصوفية وبلغوا فيها مراتب العليين .

من مولاة إلى ولية :

لكل نهاية بداية ، ولكل قوة اندفاعية ، طاقة من المزايا والمواهب فلو سألنا كل نابغ وطموح ، ما الذى حفزك أو استفزك لأجاب :

– نقطة انطلاقى : الألم أو الهوى أو الجوع أو الانتقام . .

ولتعددت لدينا أسباب الانطلاق ، والرمية الأولى ، والصدمة الباعثة ، فمن المصدر الأول الذى احتل البواكير من حياة رابعة ، فأذاقها الخوف والجوع ، والحرمان والهوان ، كانت النقطة الأولى فى الانبعاث والانعتاق ، وهو نفسه الذى أدارها ووجهها نحو هدفها الأسمى ومرامها البعيد .

ورابعة التى لم تكتب سيرتها بيدها ، ولا تركت للعصور والأجيال بعدها ، أن تلم بها إلمامة واسعة ، قائمة على الحقائق التاريخية ، تحتاج فى بعض خفاياها إلى كاشف ساطع ، هى التى جعلت المؤلفين والدارسين إلا الممحصين المخلصين ، يتقولون عليها وينحلونها كلاماً لم يصدر عنها ، لكننا ونحن لا نملك سوى شمعة ضئيلة لا يسعنا إلا أن نجوس على نورها الخفيف خلال كنز معبثر ، بعضه دفين ، وبعضه توزعته السنون والأقلام ، وكيف

جاء الأمر فإن المدى الذى سارت فيه رابعة بعزم وإيمان ، كان يحدوه شعور عنيف ، للتخلص أولاً من الرق الذى نغصها ونكد صباها وران على حياتها ، ولما تحررت وأعتقها مولاها ، لم تسلم من عبودية الولاء مهما تلطف مرماه ، فقد أجمعت المصادر على أن رابعة كانت من موالى آل عتيك ومنهم بنو عدوة الذين انتسبت إليهم والتحقت بلقبهم بحكم التقاليد السائدة ، وعتيك من قبيلة قيس ، ولهذا لقبها بالقيسية « المناوى » فى كتابه « طبقات الأولياء » والجاحظ فى مؤلفه « البيان والتبيين » ولكم تضاربت أقوال المؤرخين فى نسب هذه المتصوفة العاشقة وخلطوا فى حديثهم عنها وروايتهم لأقوالها ، بينها وبين سميات لها ، تمرّسن بالصوفية ، وعشن متقشفات زاهدات ، وكانت لهن أحاديث وأشعار فى العبادة والموعظة ، والمحبة الروحية .

ولقد أحبت رابعة الحرية وهامت فيها ، قبل أن تنصرف إلى حب الله وحده ، وفى سبيل هذه الحرية المنشودة ، عانى الإنسان على الأرض كثيراً من النكبات والأهوال ، وكلما فك حلقة من سلسلة عبوديته ، تاق إلى تحطيم غيرها حتى يفكها جميعاً وقد لا يستطيع أن يفكها كلها ، فتبقى فى أعماقه غصصاً وحسرات ، ورابعة التى ابتليت بالرق وعانت منه ما عانت كان همها التحرر التام ، والتخلص من كل ما يربطها باستعباد الإنسان .

فنشأتها الذليلة الحائرة ، وصباها الضائع ، وبيعها مثل المتاع ، ثم خيبتها مع الرجل ، وشرودها فى الصحراء ، وقلق حياتها ووجهتها ، حتى تحررت واستقرت ، نمى فيها الطاقة الاندفاعية وقوّاها ، فراحت مثل عاصفة مدوية جابت الفضاء وتصفت من أكدار الدنيا وأوزار البشر حتى أصبحت مثل النسيم نقاءً واعتلالا ، فسعى رابعة بعد خروجها من عند مولاها حرة معتقة ، إلى أن دخلت فى الزاهدين المتهجدين ، والمتصوفين العاكفين جعلها تتذوق الحرية ، وتحسها فى الجسم والروح ، ولما اكتمل تحررها من الإنسان المستعبد ، نذرت نفسها لله وعبادته ، ليكون هو مولاها وحده ، إذ لم يبق فى طاقتها أى احتمال لعبودية الإنسان ، فى أى هطور من أطواره .

وحين سلكت طريق العبادة والزهادة ، خشية العذاب والنار ، وطمعاً بالثواب والنعيم كانت تحس فى روحها عبودية فى ظلال هذا الطريق ، فازدادت طاقتها اندفاعاً ، لتسمو فوق هذه الطبقة ، وتجاهد نفسها لتصل إلى عالم أسمى وأفق تتوق إليه وتطمئن ، وتنفذ منه إلى ما وراء الوجود ، فتعلقت بالذكر فى سرها وجهرها ، فى لسانها ووجدانها ، وجعلت الوجد والوله صناعتها الدائمة وتوسلت بالحب الأصفى ، والمعرفة الطوافة بالنور

والإلهام والعبادة الخالصة ، إلى ذات الله ، وكان الله بها رحيما ، فكشف عن بصيرتها وأضاء لها دربها الطويل ، ورد لهفتها وحريتها ، لينسيها مرارة عمر شفه القلق والزهد والطموح ، وهاهنا وصلت رابعة المتصوفة العاشقة ، والمتقشفة المؤمنة إلى منزلة المقامات العليا ، لأولياء الله والقديسين والربانيين الذين وهبوا حياتهم لله وتقواه فجزاهم بما صبروا وصنعوا ، رضاه الأبدى ، وأمنه الذى لا يفنى :

وما كانت هذه الولاية فى الصوفية والحياة الروحية النقية ، مقصورة على الرجال وحدهم دون النساء ، فإن كتب التراجم والتاريخ قد احتوت أحاديث وأعاجيب لطائفة من العابدات القانتات ، والمؤمنات الصالحات ، أعدتهن المزايا والمواهب والطاقة النفسية ، ليكن بما قدمن من خير وإحسان وما فيهن من معرفة وإيمان من أولياء الله الذين تطهرت قلوبهم وتحررت نفوسهم وأذهب الله عنهم الغشاوة والضغينة ، فتفتحت بصائرهم وألهمت صدورهم وظهرت فيهم شؤون وعلى أيديهم أمور سماها الناس كرامات . . .

ورابعة التى زكاها الدين والإيمان ، وصفا تصوفها فتنقى ، وأخلصت لله العبادة والتقوى ، تجلت لها حقائق الوجود وأوتيت البركة الإلهية ، بالنفس الطاهر واليد الحانية والدعاء المستجاب ،

فعرفت عند قومها بالأمانة والتجرد الروحي وقد وثقوا بصلاحها وآمنوا بكرامتها ، وراحوا إليها يلتمسون رضاها ومحبتها ، ويعرضون عليها أن تتقبل شيئاً مما آتاهم الله من رزقه ، فكانت تتأبى عليهم وتردهم مشكورين .

وقد أقبل سفيان الثورى مرة لزيارة رابعة ، فرأى ببابها تاجراً متردد النظرات ، واجم الحركات ، فسأله عن حاجته فأجاب :

– جئت بكيس من الدنانير أريد أن أقدمه لرابعة ، علها تستعين بها على المعيشة ، وإنى لأخشى أن تردنى ولا تقبل هديتى ، فهل تستطيع أن تقنعها بأخذها ؟

ودخل الرجلان على رابعة ، وقدّما لها الدنانير فبكت ورفعت رأسها إلى السماء ، ثم قالت :

– هو يعلم أنى أستحى أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف آخذها ممن لا يملكها ؟

وجاءها تاجر آخر بألف درهم من الذهب ، وأهدى إليها بيتاً ، ويظهر أنها استجابت هذه المرة لإلحاحه ورجائه ، فذهبت إلى البيت ، وما كادت تستقر فيه حتى استغرقت فى تأمل الزخرف والطلاء ، وكأنها خرجت عن طورها فانتفضت مستغفرة لهذا الاستغراق ، وارتدت إلى صاحب البيت ترد هديته قائلة له :

ـ أخشى أن يتعلق قلبي ببيتك، فيشغلني عن عمل الآخرة، إن رغبتي كلها أن أفرغ لعبادة الله . . .

ولم ينقطع صحبها يوماً عن زيارتها ليستأنسوا بها ، ويطمئنوا بوجودها وإرشادها ، متأدبين بحضرتها ، وقد شق عليهم غلوها في التقشف ، وإعراضها عن كل عون منهم أو من غيرهم ، وقد زارها مالك بن دينار وهي في هذه الخصاصة والمحنة ، فرآها تشرب من إناء مكسور ، وقد فرشت الأرض حصيرة قديمة وكان المتكأ عندها مخدة من اللبن ، فقال لها وقد تقطع قلبه حزناً عليها :

ـ يا رابعة لي أصدقاء أغنياء ، فإن أذنت لي سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك . . .

فأجابت :

ـ أسأت القول يا مالك؛ إن الله هو الذي يرزقني ويرزقهم، أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته ، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا .

ولما سألها سفيان الثوري أقرب صحبها إليها :

ـ رابعة ، ماذا يود قلبك ؟

ولعله شاء أن يسألها عما تشتهي نفسها من المأكل، فأجابت :

ـ كيف تسألني هذا يا سفيان وأنت أعلم الناس بي ؟ إن

الله يعلم أن قلبى هفا منذ اثنى عشر عاماً إلى البلح وهو موفور بالبصرة ، لكننى لم آكل منه حتى اليوم ، ولست إلا عبدة لله ، فليس لى أن أتصرف وفق أهواء قلبى ، لأنى إذا أردت أنا ولم يرد خالقى كان هذا منى جحودا . . .

فأذعن سفيان لرأيها وقال لها :

— ليكن يا رابعة ! لست بقادر على أن أحدثك بشؤونك ، فحدثينى أنت بشؤونى . . . .

— فتبسمت رابعة وقالت :

— لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنت رجلاً لا غبار عليك !

فخجل سفيان وأطرق حزيناً ثم رفع رأسه باكياً وقال :

— إلهى ! ليتك ترضى عنى !

فعادت رابعة إلى التهكم وقالت لسفيان :

— ألا تخجل من أن تقول لله : ليتك ترضى عنى دون أن تفعل شيئاً لرضاه !

هذه الحكايات وأشباهها من الروايات المتواترة والمأثورة عن رابعة تؤيد مذهبها فى التصوف المحض ، وقنوتها الخالص ، فهى طعمت أو لم تطعم ، واستراحت أو تعبت ، سرت أو حزنت ، كل ذلك عندها سواء ، وقد صار بها التصوف إلى أن ضمنها أطوار من الذهول مملوءة بحضور الذهن ، وانفعال هو فى

إبان طفرته ، لكنه لائذ بالصمت والسكينة ، فهل كانت هى التى تحيا أو امرأة سواها ؟

لقد تفككت حدود الأشياء فى نفسها ، وتماوجت الجدران ، وما كان لها بذلك يد ، وكأنها ليست نفسها ، فأقبل مريدوها وأتباعها لتمجيدها ، فنفرت من الثناء والتمسح بها ، وصدت القوم عن أن يؤذوها بمثل هذا الاعتقاد فيها ، ولكم قتلت الجماهير مقدساتها !

لم أشهد رابعة وكيف دلف إليها القوم ملتمسين بركتها ، لكنى أتخيلها مارّة بسوق البصرة أو جالسة فى عزلتها ، مشفقة على هؤلاء الذين تلتقى بهم ، لأنهم ينغصون عليها عالمها الروحى ، وصدق ولايتها .

فالولى الصادق لا يستغل هذه الموهبة الإلهية ، ورابعة تأبت على الدجل والتمسح ، وردت كل عون إنسانى لأنه جاء من قبل مثلها ، فضلَّ طريقه ، لأن الله وحده هو المعطى ، وما عطاء الإنسان الفانى ؟ وهو يستعبد بإحسانه ، ولذلك رفضت عطايا المخلوق ، وتأدبت أن تطلب من الخالق ، وكانت ترى أن شؤون الدنيا ليست ملكاً لأحد ، وإنما هى عارية تمر من يد إلى يد ، وعلى هذا نستطيع أن نستنبط فلسفة رابعية معناها أن الوجود ملك الموجد وحده ، والإنسان يمر بالدنيا ليؤدى عملاً أو رسالة ثم يزول ويأتى غيره ، فالفانى إذن يخدم الخالد قسراً أو اختياراً ،

غصباً أو طوعا ، فكيف يتصدى متشدق فى حضرة رابعة وهو يمد إليها يداً بمعروف ، وما يده إلا عارية مأجورة ؟

كل هذا وقر فى ذهن رابعة ، لأنها كانت تملك عقلها ملكاً ثابتاً فلم يقترن صلاحها وكراماتها بالسراح والشرود وذهول الهائمين وغيبوبة الواجدين ، فآلمها ما كانت تجد من معتقد القوم بها ، وقد أكثرت لهم الصد ، وربما غلّظت مؤاخذتها إياهم بالتأنيب مثلما صنعت مع من سألوها :

— إن الله توج رؤوس الأولياء بنعمة الكرامات ، ومنطقهم بها ، فكيف بلغت هذا المقام من الولاية ؟

فأجابت :

— بقولى وعملى ، اللهم إنى أعوذ بك من كل ما يشغلنى عنك ومن كل حائل يحول بينى وبينك . . .

ولما أحرجوها فى السؤال عن سر ولايتها ، واستكثروا عليها أن تكون من الأولياء ، أثاروا فيها كرامة المرأة فأجابتهم :

— لعل ما قلتموه يكون صحيحاً فى حق المرأة التى لم تكن جديرة بمنزلة الكرامات ، لكن التنبؤ وادعاء الألوهية لم يصدر قط عن امرأة . . .

وما طرحت رابعة هذا الكلام فى مطارح العبث ، وقد تنزهت عنه ، وكانت تعرف أن عصرها وأيامها قد امتلآ

بالقرامط وبمن ادعوا النبوة ، ونشزوا على الإسلام وصادروا أموال المسلمين ، ومن أحدثوا الفتنة حتى فى جوار الكعبة ، ولم يكن بين هؤلاء جميعاً من تولى كبر الإثم إلا الرجال !

ولم تقتصر رابعة فى تهكمها عند ذلك الحد ، وإنما قررت ظاهرة من الظواهر الخاصة بنساء قومها ، فدفعت عنهن تهمة الفجور التى كانت بتأثير بعضهن فى بعض آخر ، أوردّت سبب الفساد فى المرأة إلى الرجل .

وهذه حقيقة راهنة لا تزال منسحبة إلى أيامنا ، فالرجل هو المسؤول دائماً عن سلوك المرأة فى الحياة ، وتصرفها فى البيت والمجتمع ، فهو مرآتها وقدوتها .

فلماذا استكثر بعض الرجال على امرأة مثل رابعة أن تحظى برضا الله وأن تعد من أوليائه وذوى الكرامات ، وهم يعلمون أن كبار الزهاد قد أخذوا عنها تصوفهم ، وتأدبوا بأدبها أو بزهدها ، لكن فى نفوسهم مواجد موروثة تأبى أن تظهر ولو مع الإيمان بالصالحات القانتات .

فالزاهدة الأولى فى الإسلام التى تفجر من قلبها ينبوع المعرفة الإلهية ، عاشت فى أطوار حياتها ، معتصمة بالزهد ، حتى زهدت فى أن تكون من أهل الكرامات ، وما هى بمعجزات ، أو تحقيق أحلام ، أو علم بالغيب ادعتها رابعة كما ادعاها

غيرها من المتصوفين الذين عاصروها أو جاءوا بعدها ! ولعل ما أثرعنها من الكرامات كانت تساعفه المصادفة تارة، والحقيقة تارة أخرى ، وذوو السذاجة فى زماننا يروون أحاديث كرامات عاينوها ، أو سمعوا بها لأناس صالحين وصالحات ، مما يتفق لإدراكهم تعليله أو قبوله وهماً من غير تعليل، فقصة النعش التى ذكرتها الصحف منذ شهور عن كرامة أحد الصالحين فى الريف المصري ، بعناد النعش وجموحه ، واتجاهه الوجهة التى يريدها، لا التى قصد إليها حاملوه هى من هذا القبيل .

ولقد اخترع كثير من المؤرخين والباحثين فى الصوفية كثيراً من الكرامات ألصقوها برابعة، وألحقوا بها تهاويل مما يستهوى العامة والجهلة ، وما يلائم نزعة السواد فى تصديق الخوارق ، وكان فريد الدين العطار المتصوف الفارسى أكثر المتحدثين والمحتفين بكراماتها ، فقد روى عنها الأعاجيب ، وهو يقص قصتها مع الغزلان التى نفرت من غيرها وأقبلت عليها ، ولما سئلت فى تعليل ذلك قالت :

— إن الغزلان نفرت ممن أكل لحمها . . .

وتارة يروى العطار أنها كانت فى قافلة الحج ، فنفق حمارها فى الصحراء فدعت ربها فأحياه من جديد .

وحيناً يحدثنا هذا الصوفى المفتون برابعة ، أن أحد الزاهدين

جاءها مستطعماً ، وكانت قد وضعت قدراً فيه لحم ، دون أن تنفخ تحته النار ، فلما أخذا يتحدثان عن المعرفة الإلهية نسيت القدر ، وراحت بعد صلاة العشاء تفرغ ما فيه فإذا هومنضوج اللحم سائغ المرق . . .

وحيناً يقول إن لصاً اقتحم بيتها ، ولم يجد فيه غير إبريق ، فلما هم بالخروج قالت له رابعة :

— إن كنت شاطراً فلا تخرج بغير شىء . . .

فأجابها :

— إنى لم أجد شيئا !

فقالت له :

— يا مسكين ، توضأ بماء هذا الإبريق ، وادخل فى هذا المخدع ، وصل ركعتين فإنك ما تخرج إلا بشىء . . .

ففعل اللص ما أمرت به ، ولما قام يصلى رفعت رابعة طرفها إلى السماء وقالت :

— سيدى ومولاى ! هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئاً عندى ، وقد أوقفته ببابك ، فلا تحرمه من فضلك وثوابك !

ولما فرغ من صلاة الركعتين طابت له العبادة ، فما برح يصلى إلى آخر الليل ، وعند السحر دخلت عليه رابعة ، فوجدته ساجداً وهو يقول فى سجوده معاتباً نفسه :

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيان تأتينى
فما قولى له إذ ما يعـــاتبنى ويقصينى

فقالت له ربيعة :

— حبيبى ! كيف كانت ليلتك ؟ فقال بخير ! وقفت بين يدى مولاى ، بذلى وافتقارى ، فقبل عذرى وجبر كسرى ، وغفر لى ذنبى وحقق مطلوبى . . .

ثم خرج هائماً على وجهه ، فرفعت رابعة كفيها إلى السماء وقالت :

— سيدى ومولاى ؛ هذا وقف ببابك ساعة فقبلته ، وأنا منذ عرفتك بين يديك ، أتراك قبلتنى ؟

فنوديت رابعة — على رواية العطار — فى سرها : يا رابعة ! من أجلك قبلناه ، وبسببك قرّبناه ! »

هذه الكرامات المخترعة لتدل على فضل رابعة ورجاحتها جاءت من صانعيها ورواتها ، كى تضع هذه المتصوفة العارفة فى سلك الصديقين والأولياء ، ولم يقتصر هذا الاختراع لكراماتها على ما وقع لها فى الحياة وإنما تجاوزها إلى ما وراء القبر ، فبرزت بعد موتها أحلام رواها من سمعها أو استمتع بها عن الدرجات التى بلغتها رابعة عند ربها ، وهنالك رؤى فيها عتاب وتحاور بين رابعة وأترابها وأندادها ، تؤيد مكانتها فى الآخرة ، لكن ما ورد

من هذه الكرامات ، وأكثره يشبه الحكايات والأساطير ننظر إليه اليوم من خلال التعليل العلمى فينجدنا أحياناً مع التحليل النفسى بما نتوق إليه من دراستها ، وقد عرفنا فى عصرنا طائفة من عباد الهند الذين ينامون على فرش من المسامير ، فى طاقتهم وفى وسعهم إيقاف النبض فى جسومهم عن الحركة ، أو يدفن أحدهم نفسه فى الرمل مدة ثم ينهض حياً ، وقد طوف هؤلاء فى الشرق والغرب ، فأدهشوا النظارة ، وحيروا الأطباء ، ووقف التعليل العلمى ، مكتوف الأيدى أمام هذه الألاعيب ، ومن العلماء من عللها بالتنويم المغناطيسى إذ ينوم اللاعب نفسه أو وسيطه وفى حال التنويم تجرى هذه التهاويل .

وقد رأينا فى أيامنا بعض المنومين المغناطيسيين ، يأتون بالوسيط أو الوسيطة ، فيسلطون عليه النظرة النافذة حتى ينام ، ويغيب عن الدنيا ثم يستنطقه صاحبه أو يطلب منه أن يرتفع فى الهواء ، فيعلو تدريجاً ، أو يستدرجه رويداً غير محمول على شيء . . . ولا يلبث أن يعيده كما كان ، ويرده إلى اليقظة والوعى . ولقد استطاع العلماء الماديون أن يعللوا هذه المظاهر بالقدرة النفسية أو الروحية ، إذ أن فى كل إنسان طاقة مغناطيسية تكون قوية أو ضعيفة ، فمن أوتى قوتها ومارس أفانين خاصة فى تنميتها ، استطاع أن يأتى بأعمال من هذا القبيل .

ولا يبعد أن تكون رابعة المتصوفة ذات الشخصية القوية قد صارت لها طاقة مغناطيسية استطاعت فيها روحها المتحررة النقية أن تبلغ الصفاء الجوهرى ، فتجاوزت حجاب الجسوم لترى بعين الروح والبصيرة ، وتأتى منها بقوة النفس المشعة أشياء لم يألفها الناس من بعضهم ، ولم يتعودوها فى حياتهم فعدوها كرامات ، لاسيما وقد توحدت فيها الصفات الظاهرة والباطنة وأصبح سرها كجهرها ، وفنيت فيها سجايا المخلوق ، فتولاها الخالق بعنايته وولايته .

ولا يستكثر على رابعة أن تكون من أولياء الحق ، بعد هذه المجاهدة الطويلة والعبادة الخالصة ، فالحياة منذ كانت حتى اليوم تحمل جوهراً وعرضاً وكدراً وصفوا ، فمن صفت نفوسهم ورقت جوانحهم وخلصت نياتهم لله وطابت كانوا دواء لغيرهم ، ومرجعاً للاقتباس والاستئناس ، بل ملجأ للعزاء والدعاء .

والحضارة المعاصرة مهما تتقدم فى حديدها وماديتها ، وفى علمها واختراعها ، تظل أبداً لهيفة ظمأى إلى برد الأرواح وعالم الغيب والمجهول ، تهدهد فى مواجدها وبغتات يأسها وحيرة إلحادها ، ما استعصى عليها وتأبى ، من الخفايا والمعضلات .

وفى حياة القديسين والأولياء ، عزاء وشفاء لهذا العالم ، الموبوء بالمطامع والمروق من الدين والاستهتار ، وما عنيت يوماً من

احترفوا الصوفية بعد رابعة من رجال ونساء ، أوكانوا من الدراويش وذوى الطريقة ومدّعى الذكر والأوراد فإن فى هؤلاء من يصطنع الكرامة الزائفة كالدينار الزائف ليستغل سذاجة العامة والأميين المخدوعين .

ولم تخل أمة ولا أرض من المشعوذين باسم الدين ، يسيئون للمُثل الأخلاقية والقيم المقدسة بما يدخلون من التمويه عليها ، وإلى جانب هؤلاء فى كل عهد يمنح الله الأمم والشعوب من المفكرين الصالحين ، والمخلصين المتقين ، من يبصرون الناس فى أمور دينهم ودنياهم ، ويكونون بلسماً لجراحات الوجود ، وهؤلاء هم الأولياء الحقيقيون الذين كانت منهم رابعة .

ورابعة التى ضاعت منها نفسها فى عهد عبوديتها الأولى وجدتها بين يدى ربها ، ولاء له وحده وحباً ومآبا .

خاتمة رابعة :

اختلف المؤرخون والباحثون فى تحديد العام الذى ولدت فيه رابعة كما أنهم لم يتفقوا على توضيح الخاتمة التى انتهت إليها ، على أن أكثرهم وفيهم من لم يتصد لتاريخ وفاتها ، أو التبس عليه الأمر واستعصى التحقيق ، ذكروا مجمعين أن رابعة عاشت عمراً

طويلاً ، وامتلأت حياتها بالجهد والخير والتقوى، فسميت أم الخير ، بل إن تهجدها ليلاً أحياها عمرين . . .

فابن خلكان وابن شاكر وابن العماد الحنبلى فى « شذرات الذهب» قالوا إن وفاتها عام ١٨٥ هـ، ومن المؤرخين من قدمها، ورأى أنها وقعت سنة ١٨٠ هـ وفيهم المناوى بكتابه « طبقات الصوفية » .

وقد روت كتب المتصوفين ، وتراجم المشهورين منهم ، أن رابعة كانت فى المرحلة الأخيرة من حياتها الروحية ، مثقلة بالعلة واللوعة ، من جهد العبادة والسنين ، فكانت تبكى وتنوح لا من شدة الألم، بل كدأبها كلما ابتهلت وتضرعت، وقد سئلت يوماً :

ــ ما يبكيك يا رابعة ؟ وماذا تشكين ؟

فأجابت :

ــ وا أسفاه ! إن العلة التى أشكوها من نوع لا يستطيع طبيب أن يشفيه، ودواؤها الوحيد هو رؤية الله، وما يعيننى على احتمال هذه العلة، هو رجائى فى أن أبلغ رغباتى فى العالم الآخر .

وألح عليها أحد إخوانها أن تكف عن البكاء فقالت :

ــ أخشى أن ينادى صوت فى اللحظة الأخيرة : إن رابعة ليست جديرة بالمثول فى حضرتنا . . .

وكانت تعتكف فى عزلتها أيام الحر فلا تفارقها ، فقالت لها خادمتها وصديقتها ذات مرة :

– سيدتى ! غادرى هذه العزلة ، وتعالى معى نتأمل آثار قدرة الله فأجابتها رابعة :

– بل ادخلى أنت وتأملى القدرة فى نفسها . . .

ثم أضافت :

– إن مهمتى أنا هى أن أتأمل القدرة أينما كانت . . .

فهى ترى قدرة الله فى كل ما يقع عليه نظرها ، وما تحسه نفسها ، ولم تفتر رابعة يوماً وهى فى اعتزالها وابتهالها ، عن النظر إلى قدرة الله التى تجلت فى كل ما حولها ، وتوغلت فيما وراء الوجود

فإذا خلت إلى نفسها وصلاتها أطالت العبادة ، غير عابئة بعلة ولا مشقة ، بل كانت هناءتها فى تسابيحها وسجودها ، وهذا دعاء كانت تردده فى عزلتها وخلوتها :

– سيدى ، بك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات .

أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهار . . .

واعتل جسم رابعة وتفانى ، لكن قلبها بقى مستيقظاً حافظاً ، إذ كانت ترى أن من العسير ، تمييز المقامات المختلفة فى الطريق إلى الله بالنظر ، وليس بالإمكان الوصول إليها باللسان ، فليكن قلب المتصوف العارف مستيقظاً دائماً ، ليرى بعينيه الطريق ، ويبلغ المقام .

ولم تكن تأكل فى خلال الأسبوع إلا قليلاً ، لأنها على الرغم من اعتلالها كانت فى شغل دائم بالصلاة والصوم ، فإذا أجهدتها العبادة وضعضعها الجوع انهارت ساقاها ، وسرى التكسر فى أعضائها ، فرضيت بأن تتناول طعامها وليس فيه إلا ما يسد الرمق ، وقد عاشت فيه نباتية تأبى اللحم وتجفوه على مذهب صاحبها الواله الزاهد رباح بن عمرو القيسى .

وقل خروجها من عزلتها ، فإذا مرت بأحد من قومها وعرفها ، أقبل عليها ملتمساً دعاءها ، فتقف مضطربةً ملتصقة بحائط أو عمود ، وتنهر سائلها بقولها :

ـ من أنا يرحمك الله ، أطع ربك وادعُهُ ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . . .

ويبدو أنها أبت على قومها أن يضعوا فيها الكرامة ، فهى تهيبها وتتنصل منها ، خشية أن يكون فيها ثواب لها ، وأن يروها واسطة بينها وبين الخالق ، فهى تريدهم أن يجاهدوا فى الله ،

ويقوموا بتكاليف العبادة ليستجيب لهم .

ولما اشتدت العلة برابعة لزمت بيتها ، فكان يعودها كل يوم أصحابها من الصوفيين والصوفيات ، ويقف ببابها المؤمنون بفضلها وتقواها ، لتطمئن قلوبهم بحياتها . فإذا سألوها عن أمر أخذت تبكى ، وربما فاض دمعها فتساقط على خديها ، وانحدر كما قالوا على نحرها وبين يديها .

ولم يكن فى بيتها الصغير من المتاع إلا مشجباً من قصب فارسى طوله مقدار ذراعين ، وقد نصبت عليه أكفانها ، لتذكرها دوماً بالآخرة ، وكان فراشها من لبن تنام فوقه وتصلى ، وقد سترت الأرض بحصيرة وجلود بالية .

وفى آخر أيامها انقطعت عن الطعام حتى أحست دنو الموت ، فأوصت خادمتها عبدة بنت أبى شوال بأن لا تعلم أحداً بوفاتها ، وأن تكفنها بجبتها التى كانت ترتديها ، وهى من شعر فى مصلاها ، وتلف رأسها بخمارها الأسود الصوفى .

ولما حضرتها الوفاة جلس حولها نفر من صحبها ومريديها فقالت لهم :

ـــ دعوا الطريق مفتوحة . . . فقد دنت منيتى !

فانصرفوا محزونين ، ووقفوا ببابها يرهفون السمع نحوها ، وحين فاضت روحها إلى خالقها ، وهى تناجيه بالشهادتين

عادوا إليها واجمين ، وقد سالت مدامعهم حزناً عليها .

وأغمضت رابعة عينيها إلى الأبد ، وسابق جيرانها وصحبها إلى تجهيزها ودفنها ، مترحمين عليها بعد أن صلوا عليها وشيعوها بالدمع والتوقير .

وهنا اختلف المؤرخون والرواة فى كلامهم على موقع قبرها ، كما تفاوتت آراؤهم فى كثير من حوادث حياتها ، ومراجع أصلها ونسبها ، إذ التبس عليهم الأمر فيمن تسمت باسمها ، وكانت مثلها عابدة صالحة ، أو متصوفة متقشفة ، كرابعة الشامية . والحقيقة التى توصل إليها بعض الثقات من الباحثين والمؤرخين ، كياقوت الحموى والرحالة ابن بطوطة أن العدوية البصرية دفنت فى بلدها البصرة ، وهذا هو المفهوم الطبيعى لخاتمتها ، أما وجود قبرين لمن سميتا باسمها ، أحدهما فى ضواحى القدس الشريف لرابعة البدوية ، والثانى فى حى القيمريّة بدمشق لرابعة الشامية أو « ستى رابعة » كما تسميها نساء دمشق ، فله أشباه وأمثال .

ويعلل هذا التكرار فى مراقد هاتين الصالحتين أنهما جاءتا بعد البصرية ، وسميت كل منهما باسمها ، كما نسمى فى أيامنا وما تقدمها أسماء متكررة لأنداد ونظائر ، وفى القديم والحديث اختلف المؤرخون والباحثون ، فى تحديد المكان الذى دفنت فيه

السيدة زينب رضى الله عنها ، فمنهم من زعم أن مرقدها الأخير كان فى مصر ، ومن قرر أن جثمانها الطاهر فى الحجاز أو فى ضواحى دمشق ، وللسيدة زينب مقام كريم فى كل من هذه البلاد ، يرتاده كثير من العامة والخاصة وتهوى إليه نفوسهم فى الذكريات السنوية ، والمواسم المحتومة .

وقد توزعت المدن والبلاد مراقد كثير من الأنبياء والأولياء ، وتقاسمت شرف دفنهم فيها ، كالنبى يحيى عليه السلام الذى توزعت مقامه المبارك دمشق وبيروت وصيداء ، والحسين بن على سيد الشهداء ، فإن له مسجداً ومقاماً فى القاهرة المعزية ، على مقربة من الأزهر الشريف ، وله فى المسجد الأموى بدمشق مقام كريم .

ولا نرتاب فى أن أجزاء من جسومهم الطاهرة قد أودعت هذه البلاد ، فى أعقاب المحن والثورات .

وما يفيد قبر فى التراب مكتوب له الفناء ، مهما تطاول الزمن وتراخت العهود ، وإنما المعول فيه على القبر الذى لا يفنى ، إذ يسكن صاحبه فى جوانح الأحياء ، وصفحات الكتب ، عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل .

فرابعة العدوية التى ابتدعت الحب الإلهى ، فى مذهب التصوف وعاشت تبشر بتعاليم الروح النقية وتهذيب البشرية ، نجد ذكراها

خالدة مجيدة ، فى آثار من جاء بعدها ، أو تلقى عنها وتأدب بأدبها من المتصوفين العارفين .

وحسبها فضلاً أن سبقت العصور إلى مثال علوى خطته للصالحين والمخلصين ، وعاشت فيه على معرفة وبصيرة وإيمان ، وقد تركت للنساء باب عز وحمد لا يغلق ، إذ كانت منهن ، تقدمت صفوف المتقين ، وعدت حجة لهن ، فى العبادة والدين .